قضايا نظرية

جدل الطبقة والأمة

رودنسون
ماندل
لوفيفر
أوفاري



دار الطليعة - بيروت

جدل الطبقة والأمة

بيروت - ص.ب ١١١٨١٣

الطبعة الاولى

تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤

قضايا نظرية

رودنسون
مانديل
لوفيفر
أوفاري

جدل الطبقة والأمة

ترجمة

جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الفهرس

تقديم

في أوائل الستينات اكتشف الفكر العربي ــ عبر حملة واسعة النطاق من النقد والنقد الذاتي ــ احد جوانب مرضه الطفولي : القوموية . وفي أواخر الستينات عينهـــا راح يتضح ــ ولا يزال ــ ان تحرر الفكر العربي من مرضــه الطفولي القوموي كان ثمنه ، الى حد ما ، السقوط فــي مرض طفولي آخر : الطبقوية .

حسبنا أن نضرب مثالا عينيا واحدا : ففي أوائــل الستينات اكتشف الفكر العربي اليساري ، بعد لأي وعسر مخاض ، مقولة البورجوازية الصغيرة . وكان اكتشافها ، على تأخره ، خطوة حاسمة على طريق التجذر . ولكنه ما أن

اكتشفها حتى نسي كل شيء سواها ، وبخاصة بعد حزيران ١٩٦٧ . وكان هذا النسيان بدوره خطوة هامة على طريق التأدلج (التحول الى ايديولوجيا لا أسنان لها تعض بها على الواقع) .

قبل الستينات لم يكن ثمة وجود للبورجوازية الصغيرة على صعيد المقولات بالطبع ، لا على صعيد الواقع . وكانت الايديولوجيا القومية هي المسؤولة ، الى حد كبير ، عن هذا الحسر في رؤية الواقع الطبقي . وفي نهاية الستينات ، بالمقابل ، كان قد انتفى كل وجود الا وجود البورجوازيـــة الصغيرة ــ هذه المرة ايضا بالطبع على صعيد المقولات لا على صعيد الواقع . وهنا كانت الايديولوجيا الطبقوية هـــي المسؤولة ، الى حد كبير ، عن هذا العور في معاينة الواقع القومي . وفي كلتا الحالتين يمكن تعريف المرض الطفولي بأنه ذلك الضباب الايديولوجي الذي يحجب عن النظر تارة هذا الجانب ، وطورا ذاك ، من جوانب الواقع العربي .

ومن الممكن ان يقال اننا نستسلم هنا اكثر مما ينبغي لنزعة اقامة التوازيات . ولكن لا سبيل ، على كل حال ، للمماراة في تواز واحد على الاقل : الانقسام الطبقـــي والانقسام القومي للمجتمع العربي . وانما عندما يغيب عن الوعي هذا التوازي في انقسام المجتمع العربي تنتصر آنـاً القوموية ، وآناً آخر الطبقوية .

هذا المنظور هو الذي أملى اختيار الدراسات او المقالات التي يتألف منها هذا الكراس الذي يحدد عنوانه هدفـــه

وغرضه: **جدل** الطبقة والامة، لا تنافيهما ولا حتى توازيهما.

والكراس يضم فصولا ثلاثة:

١ ـ مناظرة دارت في جامعة بروكسل الحرة، في آذار ١٩٧١، كان الوجهان البارزان فيها مكسيم رودنسون وارنست مانديل، وكان موضوعها الرئيسي من خلال منظور النزاع العربي ـ الاسرائيلي «أصراع قومي ام صراع طبقي؟».

٢ ـ نص لهنري لوفيفر اقرب ما يكون الى استعراض تاريخي يحاول أن يحدد لمن كانت الغلبة منذ عام ١٨٤٨ (منذ صدور «البيان الشيوعي»): ألمبدأ القومي ام للمبدأ الطبقي؟

٣ ـ دراسة لايرل اوفاري تعرض لموقف الماركسية من حالة خاصة، مركبة، من حالات الاضطهاد الذي يعاني منه زنوج الولايات المتحدة الاميركية، بوصفهم طبقة وقومية في آن معا.

واذا لم يكن المترجم مسؤولا عن آراء من يترجم لهم (وهذا لا ينفي مبدأ الالتزام في الترجمة)، فاننا لم نستطع ممانعة النفس عن التدخل والتعليق حيثما بدا لنا ذلك ضروريا فيما يتعلق فقط بالآراء التي أبداها كل من الاستاذين رودنسون وماندیل بصدد النزاع العربي ـ الاسرائيلي.

بقي ان نشير الى انه قد واجهتنا معضلة في ترجمة مصطلح **Nationalisme**، اذ ان ترجمته ب «القومية» قد يحدث التباسا وتداخلا بينهوبين مصطلح **Nationalité**.

وقد وضعنا مقابله تارة **النزعة القومية،** وتارة ثانية **القوموية** (اذا ورد بالمعنى المرذول) ، وتارة ثالثة **القومية** (حين لم يكن هناك خوف من الالتباس) .

ج. ط

أرنست مانديل ـــ مكسيم رودنسون

القومية وصراع الطبقات

مكسيم رودنسون :

طلب اليّ ان اتحدث هذا المساء عن العلاقـــــات بين الصراعات الطبقية والصراعات القومية . وهو موضوع عالجه الماركسيون وسواهم ، لكن ماركس سيكون نقطة انطلاقي لانه هو الذي طرح على أوضح ما يكون الطرح عددا من المشكلات

المتعلقة بهذه المسألة . ان الاعتقاد الشائع هو ان ماركس اخترع نظرية الصراع الطبقي كعامل مهم في الديناميـــة الاجتماعية . وجميع الماركسيين المطلعين يعلمون ان ذلك غير صحيح . وماركس ذاته حمّل نفسه مشقة قول ذلك وترديده بأوضح ما يكون . وقد اشار هو نفسه الى أن العديد مـن المنظّرين قد تحدثوا عن صراع الطبقات قبله بكثير ، وأنـه نفسه لم يكتشف شيئا من وجهة النظر هذه ، وان كبـار المؤرخين الفرنسيين في عهد عودة الملكية (١) بوجه خاص قد أبرزوا صراع الطبقات وسلطوا الاضواء عليه ، وخص بالذكر منهم اوغستان تيبري . فغداة ثورة ١٧٨٩ كان المجتمـع الاوروبي يفكر تفكيرا عفويا ان صح التعبير بحسب مقتضيات الصراع الطبقي .

ان الجديد الذي قدمه ماركس هو ، اولا ، ان صراع الطبقات يستمر بعد انتصار البورجوازية ، بينما كان المجتمع البورجوازي المنتصر قد اعتاد على الاعتقاد بأن هذا الصراع ظاهرة من الماضي . وأضاف ماركس ، ثانيـا ، ان صراع الطبقات هو في ذاته ظاهرة تقدمية . وأضاف ثالثا ، وهذا

---

١ ـ يطلق اسم عهد عودة الملكية في فرنسا على الحقبة الممتدة بين ١٨١٥ و١٨٣٠ والتي عادت فيها الى الحكم السلالـة الحاكمة (لويس الثامن عشر وشارل العاشر) وقد شهدت تلك الحقبة اعظم حركة بورجوازية للتأريخ ، كان من ابرز وجوهها اوغستان تيبري ومينيه وغيزو . ـم ـ

ما كان يعتبره من مساهماته الاساسية ، ان صراع الطبقات الذي يدور في المجتمع البورجوازي سيفضي الى مجتمع بلا طبقات. ومن هنا كان تشديده على صراع الطبقات في اوروبا في الاربعينات من القرن التاسع عشر . وهذا التشديد هو الذي أفضى الى تلك الصيغة الغنائية المعروفة لديكم جميعا، صيغة «البيان الشيوعي» في ١٨٤٧ ـ ١٨٤٨ ، القائلة ان تاريخ البشرية لم يكن حتى ذلك اليوم سوى تاريخ صراع بين الطبقات .

عند هذه الصيغة اود ان اتوقف قليلا . بالفعل ، ينبغي ان نتساءل عما يمكن أن تعنيه بالنسبة الى ماركس ، اذ كان ماركس يعلم بالطبع جيدا انه اذا اخذنا التاريخ بمفهومه الشائع فانه قد عرف اشياء كثيرة غير الصراعات الطبقية ، وعلى الاخص صراعات قومية وصراعات اثنية وعشائرية ، الخ ، وهذه لم تكن صراعات طبقية ، وعلى الاقل للوهلة الاولى . بديهي انهيريد ان يقول ـ هذا اذا أو‍ّلنا قوله بحسب أطره الفكرية عصرئذ ، وعلى اعتبار انه قد تبنى فلسفة للتاريخ متفائلة وتقدمية وتطورية النزعة (بمعنى ما اصلا ، على اعتبار انها كانت ثورية ايضا) ـ ان صراع الطبقات هو الظاهرة التي تعين للبشرية مسيرتها المتقدمة والمتدرجة نحو أشكال اكثر نجعا وفاعلية في علاقات الانتاج ، ونحو زيادة الانتاجية الانسانية والانتاج ، مع كل ما يمكن ان يترتب على ذلك من نتائج ثقافية واجتماعية الخ .

وقد رد ماركس في الوقت نفسه الفكرة القائلةان صراع الطبقات ظاهرة انتقالية ، ظاهرة من الماضي (وهي فكرة

شائعة في المجتمع البورجوازي عصرئذ) ، وظاهرة مشوُومة ينبغي ان تحارب . باختصار ، ينبغي ان ندرك ان المجتمع البورجوازي الذي صنع ثورة ١٧٨٩ كان يساوره الاعتقاد يومئذ بأنه قد وصل الى ضرب من مجتمع بلا طبقات . كان الجميع يعون وجود اغنياء وفقراء ـ وربما كانوا يعون ذلك بغير مصطلحات ماركس : رأسماليين وبروليتاريين ـ لكنهم كانوا يعتقدون ان هذه الفروق غير موائمة وليست في محلها ، وان كل شيء سيتسوى وسيصطلح بفضل تقدم الانتاج والتقنية والتعليم الخ ، وانه لا داعي لقيام مرحلة نوعية جديدة ، ولا حاجة لثورة اخرى ، ما دام قد تم ولوج عالم المجتمع اللاطبقي . زبدة الكلام ، انه عين وعي الذات السائد في المجتمع السوفياتي في ايامنا هذه . صحيح ان هناك من الفروق ما لا يغيب عن أنظار اي انسان ، لكن ليس هناك من يعتقد ان هذه الفروق موائمة وفي محلها . كذلك كانت الحال في الامبراطورية العباسية الاسلامية : فبالرغم من ان الفوارق في المراتب فيها كانت صارخة الى حد يبهر الابصار لوجود فئة غنية جدا ومتسلطة من جهة وعبيد او أناس كانوا يحيون في بؤس مدقع من جهة اخرى ، فقد كان يصعب على الناس ان يتبينوا وجه عدم المواءمة في تلك الفروق ، وذلك ما دامت شريعة الله متساوية بالنسبة الى الجميع ، وما دامت ستأتي ، في يوم او في آخر ، أكلها الخيِّرة .

لقد حارب ماركس الفكرة التي تقول ان السعي وراء المصلحة هو المسيطر على ذلك المجتمع الذي تم تأسيسه اخيرا

على أسس عادلة . وحارب كذلك «السذاجة» البورجوازية التي روجتها الإيديولوجيا البورجوازية ، والتي تزعم انه ما دام الشعب قد صار له في البرلمان ممثلون منتخبون — بل منتخبون حتى بالاقتراع العام — ومن اصحـــاب الارادات الخيِّرة (ولئن وجد بينهم بعض السافلين او الاغبياء فستتم تنحيتهم لا محالة بحكم منطق الاشياء) ، فان هذه الارادة الخيِّرة كافية وحدها لتغليب المصلحة العامة وتقديمها على ما عداها . وقد وقف ماركس بوجه هذه السذاجة ، فاضحا اياها ، مشهرا بها ، مبينا ان المسألة ليست بحال مـــن الاحوال مسألة ارادة خيِّرة او طيبة ، وانما المسألة تمثيل (او عدم تمثيل) طبقات ذات مصالح متباينة في ادارة المجتمع او قيادته . وما أشبه هذا المسعى بالمسعى المطلوب اليوم بذله لتبديد الاوهام في المجتمعات التي يسود فيها الاعتقاد بأن الارادة العامة يمكن ان تتغلب على ما عداها بصـــــورة طبيعية وبدون صراعات داخلية .

لقد تمسك اتباع ماركس بصيغته ليخلصوا الـــــى استنتاجات فيها ما فيها من الشطط على ما أعتقد، ولينتهوا الى أطروحات كالتالية : ان الصراعات القومية ليست ، في كل زمان ومكان ، سوى ظاهرات ثانوية عارضة وأقنعـــة لصراع الطبقات . ومن الافكار التي ذاعت وراجت كثيرا في اوساط الماركسية المبتذلة ، المتحولة الى المؤسسة — لا حاجة من وجهة النظر هذه للتمييز تمييزا دقيقا بين المؤسسات المتزاحمة التي أضفت عليها طابع المؤسسة — راجت الفكرة القائلة ان الطبقات صاحبـــة الامتيازات تحث على الصراع

القومي وتحض عليه لتحويل انظار الجماهير عن الصراع الطبقي . ولم يحجم اتباع هذه الماركسية المبتذلة والمحولة الى مؤسسة ، بعد حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ ، عن تفسير هذه الحرب بطابع الرأسمالية الشرير ، وحده دون غيره . وعليه يكون الدواء : بانتفاء الرأسمالية تنتفي الحروب . وقد طوت هذا التفسير اليوم يد النسيان ، اذ ان الاجيال الثورية المعاصرة لا تعير كبير اهتمام للخسائر في الارواح البشرية ، في حين ان الخوف من الحروب هو الذي دفع بالكثيرين بالمقابل في حوالي عام ١٩٢٠ نحو الماركسية . ولم يكن السبب احتمال حدوث تحسن اجتماعي بقدر ما كان الاقتناع المتكون بأنه سيتم ولوج عالم بلا حروب بفضل الغاء الرأسمالية .

من هذا المنظار تغدو الصراعات القومية ظاهرات ايديولوجية محضة ، غير مرتكزة الى اي شيء عيني ملموس، مشوهة في حقيقتها ، لا تقابلها ، نظير الصراعات الطبقية ، شبكة من المصالح والصبوات المتحددة بوضع الناس في علاقات الانتاج . من هذا المنظار ، باختصار ، لا يمكن ان تكون هناك مصالح او صبوات حقيقية اصيلة قد تسبب التنافر بين اعضاء الطبقة الواحدة في أمم مختلفة ، وعلى الاقل اذا كانت الطبقة موضوع البحث هي الطبقة المضطهَدة . فبالنسبة الى الطبقة السائدة يقبل هذا الصنف من الماركسية بقدر او بآخر بوجود اختلافات في المصالح . اما بالنسبة الى الطبقة الرازحة تحت نير الاضطهاد ، وعلى وجه الخصوص الطبقة العاملة ، فلا سبيل الى ان تقوم مصالح

متنافرة . فأي مناهضة لطبقة عاملة بعينها هي مناهضة لجميع الطبقات العاملة ، الخ . ويبدو انه من الامور التي لا تعقل ولا تتصور ان يقدم أناس انعتقوا من نير الاضطهاد الرأسمالي على التصارع فيما بينهم . ومن هنا كان المجهود الدائب من قبل المقتنعين بهذه الآراء لارجاع الشقاق الاثني ـ القومي الى شقاق بين الطبقات .

لقد اخذ عليّ بعضهم النقد الذي وجهته في مقدمتي لكتاب ابراهام ليون «التصور المادي للمسألة اليهودية» (١) ـ هذا ألكتاب الذي أقر اصلا بعظيم قيمته على صعيد معين والى درجة معينة ـ الى رغبة المؤلف في ارجاع التاريخ اليهودي واختزاله الى مشكلة من مشكلات صراع الطبقات، بواسطة نظرية الشعب ـ الطبقة (٢) ، وكذلك النقد الذي وجهته الى مسلمته (الرائجة جدا) القائلة ان كل حل على صعيد الطبقات هو ايضا حل للمشكلات القومية . وهذا امر اسمح لنفسي الا أصدقه تمام التصديق ، واشير هنا الى

---

١ ـ ترجمة هذه المقدمة نشرت في الطبعة العربية الثانية لكتاب «التصور المادي للمسألة اليهودية» الصادرة عن دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٠ . ـم ـ

٢ ـ الشعب ـ الطبقة هو المفهوم الاساسي الذي استخلصه وطبقه ليون في دراسته لتاريخ اليهود بوصفهم شعبا وطبقة في آن واحد . ـم ـ

المسألة الاسرائيلية ــ الفلسطينية (١) .

أنتقل الان الى تقييم نقدي لتلك ألاطروحات. أعتقد ان تصور ماركس عن الاهمية العظيمة في التاريخ للصراعـــات الطبقية مكتسب نهائي في علم السيرورات الاجتماعية او علم الاجتماع . لكن ليس من المؤكد البتة ، من جهة اخرى ، ان صراع الطبقات يفضي على الدوام الى تقدم . وهذه اطروحة طورتها بوجه خاص الماركسية الايديولوجية ، ولاسيمـــا الماركسية ألستالينية . لقد قرأت ، منذ بضعة ايام ، ردا لماركس في عام ١٨٧٧ على احد أتباعه ، ميخائيلوفسكي ، الذي كان قد كتب مقالا متطرفا في ماركسيته ، عمم فيه الاطروحات الماركسية بغية تطبيقها على تطور روسيا . لقد صدم ماركس صدمة شديدة بهذا المقال الذي ظهر في مجلة روسية ، وكتب رسالة الى الناشر ، لكن الرسالة لم ترسل وتولى انجلز نشرها بعد وفاته . في هذه الرسالة يقـــول بالتحديد أن ميخائيلوفسكي يبغـــي ان يطبق «نظريـــة فلسفية ــ تاريخية» على جميع الاوضاع ، وان ليس هذا ما رمى ماركس الى فعله . ويضرب ماركس مثالا على ذلك بأنه

---

١ ــ ان عميق معرفة رودنسون بالعالم العربي وبالواقع الاسرائيلي يجعلنا **لا** نتقبل منه بسهولة ارجاعه الصراع العربي ــ الاسرائيلي الى مجرد **مسالة** ، **لا صراع** ، والى مجرد مسألة **فلسطينية** ــ اسرائيلية ، **لا عربية** ــ اسرائيلية . ــم ــ

حدث في أواخر ايام الجمهورية الرومانية ، بنتيجة الصراعات الطبقية في المجتمع الروماني ، أن تواجدت من جهة اولى جماهير حرة كان يمكن في ظروف اخرى ان تتحول الى بروليتاريين مأجورين ، وتواجدت من الجهة الثانية رساميل كبيرة . وهذه هي بالضبط الافتراضات التي اشار ماركس في «**الرأسمال**» الى انها في اساس انطلاق المجتمع الرأسمالي . وهذا بالفعل ما حصل في اوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ولكن ليس في روما البتة . فقد صار فيها البروليتاريون المشار اليهم جمهورا مرتشيا، تقدم له ألعاب السيرك والخبز فيكتفي بها ، بينما كان الاغنياء ينفقون ثرواتهم على كل شيء الا على شراء قوة العمل بالاجور واطلاق المشاريع الرأسمالية الانتاجية .

كذلك لا يمكن ان يقام البرهان على ان المجتمع الاقطاعي – على افتراض انه ارقى من المجتمع العبودي ، وهذا شيء يحتاج هو الآخر الى اثبات – هو حصيلة صراع الطبقات في العصور القديمة . اذن ليس من المؤكد ان صراع الطبقات يفضي على الدوام الى تقدم .

لكن من المؤكد ، بالمقابل ، انه ظاهرة ثابتة لا تكفي ادانتها ، كما درجت العادة في المؤسسات الايديولوجية البورجوازية كالكنيسة التي ظلت تعتقد طوال سنين مديدة – وقد بدأت هذه العادة تزول في الآونة الاخيرة – انه يكفيها ان تعلن بأعلى صوتها ان «التصارع شر عظيم والتفاهم افضل بكثير» حتى يوقف اعلانها هذا صراع الطبقات . ان الصواب هنا حليف ماركس بكل تأكيد ، وتمويه ظاهرة الصراع الطبقي

هو نفسه استراتيجية في هذا الصراع عينه .

انه لفي حكم المؤكد ـ كما كان ماركس يرى وأعتقد اننا بتنا نعي جميعا ذلك ـ ان المجتمع البورجوازي لا يشهد نهاية صراعات الطبقات ، وأن ليست المصلحة العامة هي التـــي تسوده . وسوف أضيف ان ماركس ، الملبـــد الذهـــن بالايديولوجيا بالرغم من عبقريته ، ما كان يتصور ان مجتمع الاقتصاد المدول لن يشهد هو الآخر نهاية صراع الطبقات . وقد لا يوافق على ذلك عدد كبير منكم ، ولكن هذا هو رأيي. أعتقد اذن ان افكار ماركس مكتسب دائم لعلم الاجتماع ، ولكن من المناسب توسيعها ، وذلك أصلا بحسب توجيهاته ونهاجيته العامة بالذات .

لو تفحصنا كيف يجري صراع الطبقات في الواقع ، اختباريا ، تحت أبصارنا ، لرأيناه يدور ويتطور في رحـم وحدات مختلفة : الامم ، الدول ، القوميات ، الخ . طبيعي ان هناك توازيات واتجاهات متماثلة بين الصراعات ، كما هي الحال في اوروبا المعاصرة ، ولكن ذلك في أماكن اخرى ليس بالقدر نفسه من الوضوح ، ولقد كان أقل وضوحا ايضا في عصور مغايرة . كان هناك توازيات واتصالات وأمميات ، وقد وجد منها الكثير قبل **الاممية الاولى** التي رات النور في عام ١٨٦٧ ، وان في شكل اكثر فجاجة . لكن وجد فـــي التاريخ كذلك صراعات بين تلك الوحدات الاثنية والقومية ، وهذه عين البداهة ، وهذه الصراعات غير قابلة للارجـــاع والاختزال الى صراع الطبقات .

كما انه لا وجود لانسجام مسبق بين الطبقات ، كذلك

لا وجود ، على ما أعتقد ، لانسجام مسبـــق بين الوحدات الاثنية ، والوحدات الاثنية ــ القومية ، والقوميات ، والامم، الخ . ولا أحسب انه قامت حتى اليوم ، على صعيد عقلاني ووفقا لمقتضيات البرهنة العلمية ، اسباب ملزمة للاعتقاد بأن كل نزاع خارجي ، مثلا ، مرتهن بنزاعات داخلية . كما لم تقدم المبررات الكافية للاعتقاد بأن الغاء الصراعات الداخلية، على افتراض انه ممكن كما يتصور الكثيرون منكم ، لا بد ان يؤدي الى الغاء الصراعات الخارجية . بل يخيـــل اليّ ان لدينا مؤشرات على العكس .

ليس هناك اسباب ملزمة للاعتقاد بأنه لا وجود لاساس مادي ، عيني ، اي ليس محض ايديولوجي ، للنزاعات بين الامم والتشكيلات الاثنية ــ القومية . بل كل شيء ، على العكس ، يحمل على الاعتقاد بأن الصراع ــ الذي هو صراع أبدي على ما يخيل اليّ ــ في سبيل السيطرة على اكبر عدد ممكن من الاشخاص والاملاك يجري ، لا عموديا ، اذا جاز التعبير ، بين طبقات وفئات وشرائح ، الخ ، في رحم الامة الواحدة او الاثنية الواحدة او القومية الواحدة فحسب ، بل يجري ايضا أفقيا بين كيانات اثنية ــ قومية اجمالية .

طبيعي ان هناك وشائج بين هذين الضربين من الصراع. فمما لا مراء فيه ، على سبيل المثال ، ان تعيين حدود تلك الوحدات مرهون جزئيا بالمستوى الذي بلغه الانتاج . فما ان يبلغ الانتاج مستوى معينا ــ والانتاج مرتبط جزئيا ببنية الطبقات ــ حتى تتولد وحدات اوسع نطاقا بكثير من تلك التي كانت قائمة سابقا ، تتولد قوميات او اثنيات او

أمم بدلا عن القبائل والعشائر على سبيل المثال .
ومما لا مراء فيه ايضا ان العلاقـــة ليست من جانب واحد . وأنا أعتقد ان الانقسام الى طبقات ، الى فئات، الخ، مرهون ايضا بحجم الوحدات ، وأن الطبقات والفئات ، الخ، تتولد احيانا عن الصراعات بين هذه الوحدات . هذا مـــا تبينه انجلز في «ضد دهرينغ» حين حاول التدليل علـــى وجود طريقين في ما قبل تاريخ تكوّن الطبقات : طريق يمر بالاوضاع الوظيفية التي تتحول الى أوضاع مميزة ومقدمة على غيرها ، وطريق ثان هو بكل بساطة طريق الحرب ، طريق الفتح ، حين تتحول قبيلة او اثنية غزت اخرى الى طبقة عليا داخل أمة جديدة . ولدينا مثال على ذلك في رواندا ــ بوروندي حيث يقوم انقسام اثني واجتماعي في آن واحد. فتارة ترجح كفة الصراع الداخلي فيرتهن به الصراع الخارجي، وقد لاحظنا ذلك في حالات عديدة ، قديمة وحديثة (هذا ما حصل في المدن الاغريقية حيث كانت الارستقراطية «تخون» المدينة حبا بالعدو متى كان العدو ارستقراطيا) ؛ وطورا ترجح كفة الصراع الخارجي فيسكت التطاحنات الداخلية . هذا كله مرهون بالوضع الداخلي والخارجي ، سواء أمـن وجهة النظر البنيوية ام من وجهة النظر الظرفية . وعلى كل حال ، ان للدعوة الى الوحدة القومية في احيان كثيرة مفعولا جبارا .
انني أعارض تماما النظرية الرائجـــــة هذه الايام ، والمبشرة بالنزعة القومية ، ولاسيما فـــي العالم الثالث ، بوصفها القوة الرئيسية ، تلك النظرية التي أطلق عليها احيانا

اسم القومانية Nationalitarisme (١) . فلو كان المقصود بها غلبة الصراع القومي في مرحلة النضال في سبيل الاستقلال في العالم الثالث ، لكانت مقبولة تماما . لكن هذه النظرية تستبعد وتنحي جانبا ، ايضا ، عوامل الصراع الداخلي، وتوسع تلك المرحلة وتسحبها على ما بعد الاستقلال في اطار عمل مشترك يطلق عليه اسم الاعمار او البناء القومي ، وهو امر لا يمكن القبول به الا قبولا جزئيا على ما أعتقد . هنالك ايضا تكريس لهذا الاتجاه ؛ حتى أمسى هناك من يعتقد أن قومية الضعفاء ، قومية العالم الثالث ، لا يمكن ان تصبح يوما ظالمة بدورها ، وهذا شيء لا يمكن ان آخذ به . بل ان هناك من يذهب الى انه لا مجال لطرح مشكلات داخلية ، على الاقل لفترة طويلة ، ابان مرحلة الاعمار او البناء القومي تلك .

وعليه ، فانني من جهة اولى ضد تلك النزعة القومية او القومانية التي تتكلم دائما ، في كل مجال ، وفي كل حالة ، عن هيمنة الصراع القومي ؛ لكنني ايضا ضد اختزال كل صراع اجتماعي وكل صراع بين المجتمعات الى محض صراع بين الطبقات . وسأعود عما قريب الى تحديد بعض النقاط.

---

١ ـ النقد موجه هنا في ارجح الظن الى انور عبد الملك الذي نعتقد انه كان اول من نحت مصطلح القومانية تمييزا عن القومية او القوموية ذات الوقع المكروه لدى الاوساط الديموقراطية والتقدمية فياوروبا. ـم ـ

ارنست ماندل :

١ ــ ملاحظات تمهيدية :

أود اولا ان أبدي بعض ملاحظات مقتضبة حول بعض المشكلات التي أثارها مكسيم رودنسون في مداخلته. أعتقد باديء ذي بدء ان التوكيد ألقائل بأن صراع الطبقات لا يفسر التاريخ كله ليس مقنعا كثيرا حين نضع انفسنا على المستوى البالغ العمومية والبالغ التجريد الذي وضع عليه مكسيم رودنسون نفسه . فحين يؤكد ان الغلبة آناً للعوامل الخارجية ، وآناً آخر للعوامل الداخلية ، فانه لا يقدم بذلك جوابا بل يطرح سؤالا . وبالفعل ، ان هذه الصيغة تثير تساؤلا : **لماذا** تكون الغلبة للعوامل الخارجية في بعض الاحيان ؟ وهل تكون لها الغلبة بفعل مصالح حقيقية ، وان بلى فما هذه المصالح ؟ ام أن الغلبة تكون لها بفعل استلابات ايديولوجية باعتبار ان بعض الطبقات الاجتماعية لا تكون واعية لمصالحها ، وكذلك باعتبار انه قد حيل بينها وبين وعي مصالحها ؟ لكن ما هي أسس هذا الاستلاب ؟ ان جميع هذه الاسئلة ، التي تفضي أليها ملاحظة مكسيم رودنسون، اسئلة تعيدنا الى صلب صراع الطبقات .

ان صراع الطبقات محاولة لتفسير التاريخ ؛ وجميع التفسيرات الاخرى تنتهي بعلامات استفهام ترجعنا الى صراع الطبقات . وفي وسعي ان أورد أمثلة كثيرة في نفس اتجاه

الامثلة التي اشار اليها مكسيم رودنسون ؛ ولا حاجة بنا اصلا للعودة القهقرى الى الوراء حتى العصور القديمة الرومانية .

لقد امكن ملاحظة انحراف مماثل في تاريخ المانيا الشرقية في القرن السادس عشر . فقد كان تحول الريع العقاري الى ريع نقدي قوة تحرير كبرى لفلاحي اوروبا الغربية ، عجلت بقيام مجتمع رأسمالي . لكن الظاهرة عينها أحدثت في اوروبا الشرقية ، وبالتخصيص في المانيا الشرقية ، مفعولا معاكسا تماما . فقد أدت الى اعادة العمل بنظام القنانة الذي توطد وتعزز ، وهذا ما ينبغي الا ننساه ، حتى بداية القرن التاسع عشر . وحين نتساءل عن اسباب الانضباط الشديد لدى البروسيين ، فان تفسير ذلك يجب البحث عنه ، جزئيا على الاقل ، في كون غالبية سكان هذا الجزء من المانيا قد لبثوا أقنانا حتى عام ١٨٠٧ ، اي على امتداد ما يقارب ٤٠٠ سنة بعد زوال أو شبه زوال القنانة في مناطقنا .

هل نكون بقولنا ذلك قد استبعدنا صراع الطبقات من التحليل ؟ بديهي ان لا ! اذ لا مفر من تفسير ما جرى في المانيا الشرقية وفي اوروبا الشرقية بمسار للصراع الطبقي يختلف عن ذاك الذي تعرفناه في اوروبا الغربية ، وبعبارة أدق ، بمآل آخر لذلك الصراع الطبقي عينه . فهذا التطور في المانيا الشرقية هو نتيجة لتوطد الارستقراطية العقارية، وهذا التوطد هو بدوره حصيلة اندحار الفلاحين في **حرب الفلاحين** وحصيلة الوهن الذي طرأ على البورجوازية المدينية

بفعل تحول مسار الحركة التجارية وحرب الثلاثين عاما ألخ. هكذا يعيدنا تطور لم يكن مستقيما الى تحليل هو في خاتمة المطاف تحليل صراع الطبقات .

أريد ان أبدي ملاحظة اخرى ردا على توكيد لمكسيم رودنسون يبدو لي غير مبرر . ففي تقديره ان ماركس قال انه لن يعود هناك صراع بين الطبقات في المجتمعات «ذات الاقتصاد المدوّل» (بودي أصلا ان أعرف اين استخدم ماركس هذه الصيغة) . والحال ان ماركس قال غير ذلك تماما . قال انه لن تعود هناك طبقات اجتماعية ، وبالتالي لن يعود هناك صراع طبقات في اقتصاد تغدو فيه وسائل الانتاج ملكية المنتجين المتشاركين ولا يعود فيه وجود لانتاج سلعي . وهذا يكاد بالاصل ان يكون تحصيل حاصل .

لم يقل ماركس قط انه يكفي ان تضع الدولة يدها على وسائل الانتاج حتى يزول صراع الطبقات : فلقد كان على قدر من «الماركسية» لا يستطيع معه ان يتجاهل ان وجود الدولة بالذات يبرهن على وجود الطبقات ، ووجود الطبقات يعني استمرار الصراع الطبقي . حين يتكلم ماركس اذن عن اضمحلال صراعات الطبقات ، ينطلق من سياق مغاير تماما ومن أوضاع مغايرة تماما لتلك التي نعرفها حاليا في الاتحاد السوفياتي او في اوروبا الشرقية .

٢ ـ الظاهرة القومية والصراع الطبقي .

لنعد الان الى موضوع أمسيتنا : العلاقات بين الظاهرة

القومية وصراع الطبقات .

الملاحظة الاولى : الظاهرة القومية ولـــدت من صراع الطبقات . وانه لمن العسف ان نخلط بين وجود الدولة ، والتشكيلة الاثنية ، وتجمعات القبائل ، واتحادات الكومونات او المدن ، وبين الظاهرة القومية . **فالامبراطورية الرومانية** لم تكن ظاهرة قومية ، ومثلها امبراطورية العصور الوسطى. ولم تكن انكلترا أمة في القرن الثاني عشر او الثالث عشر ، وهذا لسبب واضح وهو أن قسما كبيرا من الطبقة السائدة فيها كان لا يزال يتكلم لغة مختلفة عن لغة الشعب ، وكان من اصل مغاير : النورمانديين الذين كانوا قد غزوا انكلترا.

ان الاطروحة الماركسية ترى في الامة نتاج صراع طبقة محددة ، هي البورجوازية الحديثة . فهذه هي اول طبقة في التاريخ تخلق الامة . تخلقها **اقتصاديا** ، لانها بحاجة الى سوق قومية موحدة ، وتزيل جميع الحواجـــز الماقبل ــ رأسمالية ، وشبه ــ ألاقطاعية ، والحرفوية ، والاقليمية ، التي تعترض سبيل التداول الحر للبضائع بغية تأمين وحدة تلك السوق القومية . وتخلقها ايضا من وجهة النظـــر **السياسية ــ الثقافية** ، لانها ترتكز الى مبدأ السيـــادة الشعبية ، المناقض لشرعية الحكم الملكـــي او النبلاء او الكنيسة ، من اجل تعبئة الجماهير الشعبية ضد الطبقــات السائدة القديمة .

لقد ولدت الفكرة القومية مع الثورات الديموقراطيـــة

البورجوازية الكبرى . ولدت أصلا في مناطقنا (١) (يمكن ان يكون ذلك موضوع افتخار ويمكن الا يكون) ، ما دامت الثورة البورجوازية الكبيرة الاولى في التاريخ هي ثورة البلــــدان الواطئة المتمثلة في الانتفاضة القومية على ملك اسبانيا ، تلك الانتفاضة التي بدأت في فلاندرا حيث هزمت ، ولكن التي انتصرت في هولاندا حيث نشأت عنها أول امة حديثة ذات وعي قومي على اساس بنية تحتية رأسمالية .

ثم عرفت بريطانيا العظمى ، والولايات المتحدة ، وفرنسا مع الثورة الفرنسية ، واسبانيا ، وألمانيــــا ، وبولونيا ، وارلندا ، الخ ، عرفت جميعها بزوغ الامة عينه . وفـــي جميع هذه السيرورات كانت المصالح الماديـــة الكامنة وراء الفكرة القومية شفافة ، لا تحتمل الغموض ولا تطيق الاخذ والـــرد .

وبالاصل ، ما كانت البورجوازية نفسها ، في تلـــك الحقبة من تاريخها ، اي في الحقبة التي كانت لا تزال فيها ثورية وتقدمية ، تلف وتدور ، بل كانت تعلن عن اهدافها بكثير من الفجاجة. ولو قرأتم تصريحات الجيرونديين ــ الذين كانوا اكثر احزاب الثورة الفرنسية بورجوازية وقومية في آن معا ، والذين كانوا اكثر قومية بكثير من اليعاقبة ، اذ انهم هم الذين حضوا ودفعوا باتجاه مواصلة الحـــرب ، وليس

---

١ ــ اي في بلجيكا ــ فلاندرا ــ البلدان الواطئة باعتبار مانديل نفسه فلاندريا . ــم ــ

اليعاقبة ـ لو قرأتم تصريحاتهم لعاينتم ذلك الارتباط بين العوامل التي تحدثت عنها والتي ينضاف اليها (على اعتبار اننا في عام ١٧٩٠ في عصر أكثر تقدما من البلدان الواطئة في القرن السادس عشر او من الولايات المتحدة عام ١٧٧٦) دافع ثالث : مزاحمة تجارية تعارضت بسببها البورجوازية الصناعية المعملية (١) الفرنسية مع ألبورجوازية الانكليزية . وبحسب رأي عدد من المؤرخين الرسميين الحاليين **للثورة الفرنسية** ، وعلى الاخص مدرسة لوفيفر ، لعبت تلك المزاحمة دورا اكبر بكثير في حروب **الثورة والامبراطورية** . فلم تكن هذه الحروب محض صراع بين البورجوازيةالفرنسية من جهة ، وبين سائر الدول الاوروبية ، المناهضة بقدر او بآخر للثورة ، التي تدخلت دفاعا عنامتيازات النبلاء والملكية في فرنسا ، من جهة اخرى .

الملاحظة الثانية : لقد ولدت الامة من صراع طبقي نوعي ، صراع البورجوازية ضد الاقطاع والقوى شبه الاقطاعية ما قبل ـ الرأسمالية . وهنا كان ينبغي ان أوضح (ولكن لن يتسنى لي الوقت لذلك) الدور الذي لعبه الحكم ألملكي المطلق ، دور ما قبل ـ القومية (الامر في المثال الفرنسي في غاية الوضوح : فليست القومية بالمعنى الحديث للمصطلح هي ما تجسد في شخص ملك مثل لويس الرابع عشر ، وانما ما قبل ـ قومية سلالية ، وذلك

---

١ ـ البورجوازية المعملية (المانيفاكتورية) سبقت في ظهورها التاريخي البورجوازية الصناعية ، مثلما سبق المعمل المصنع . ـم ـ

بقدر ما يمثل الحكم الملكي المطلق تغييرا مسبقا في موازين القوى بين النبلاء والبورجوازية) .

ماذا يحدث حين يعقد لواء الظفر للدولة البورجوازية، الثورة البورجوازية ؟ بديهي ان الصراع الطبقي لا يتوقف . وليس أشهى على قلب البورجوازية من ان تراه وقد توقف عند ذاك الحد . والجميع يعلن انه ينبغي ان يتوقف . لكنه لا يتوقف .

ففور استئناف الطبقات المهزومة لصراعها بعد انتصار البورجوازية ، ينتقل هذا الصراع الى ميدان البنية الفوقية. انني أذكّر بذلك رفاقي الماويين الاعزاء ، لانه يتوجب عليهم ان يفسروا لنا لماذا لم يؤد استمرار الايديولوجيا شبه الاقطاعية على قيد الحياة على امتداد القرن التاسع عشر بأسره الى اعادة النظام الاقطاعي الى البلدان التي لبثت فيها تلك الايديولوجيا في غاية القوة (١) (يذهب بي الفكر هنا بوجه خاص الى فرنسا حيث لبثت الايديولوجيا السائدة في ذلك العصر هي الايديولوجيا الكاثوليكية ، المقابل رأسمالية

---

١ ـ اشارة نقدية من ماندل الى احد المبادىء التي قامت عليها الثورة الثقافية في الصين ، وهو المبدأ القائل ان بقاء الايديولوجيا البورجوازية على قيد الحياة بعد انتصار الثورة البروليتارية يعني ان الصراع الطبقي لم يتوقف ، بل ازداد حدة ، وانه يهدد بالتالي باسقاط البروليتاريا وباعادة الرأسمالية كما حدث في العديد من الاقطار الاشتراكية التي يحكمها «التحريفيون» . ـم ـ

والماقبل بورجوازية وشبه الاقطاعية الى حد نموذجي ، التي واصلت ادانتها للثورة الفرنسية حتى عام ١٨٨٠ ، والتي بقيت طيلة مرحلة بكاملها ايديولوجيا غالبية الطبقات غير العمالية) .

وكما ان بقاء الايديولوجيا شبه الاقطاعية على قيد الحياة لم يؤد الى اعادة النظام الملكي القديم في القرن التاسع عشر ، كذلك فإني أعتقد ان بقاء الايديولوجيا البورجوازية او البورجوازية الصغيرة على قيد الحياة بعد الاطاحة بالرأسمالية لا يمكنه ان يفسر وحده خطر عودة الرأسمالية. فلكي يبرز هذا الخطر فعلا ، لا بد ان تكون هناك مصالح مادية وقوى اجتماعية على قدر كاف من القوة ، ومنخرطة في الصراع في سبيل تلك العودة، لا محض بقايا ايديولوجية او سياسية أو غيرها في دائرة البنية الفوقية كما يرى ذلك، ان لم يكن ماوتسي تونغ (فهو نفسه اكثر حذرا بكثير حول هذا الموضوع) ، فعلى الاقل عدد لا بأس به من اتباعه او من أولئك الذين يرجعون اليه .

هنالك اذن انتقال للصراع مع القوى ما قبل الرأسمالية الى صعيد البنية الفوقية . وهنالك في الوقت نفسه انتقال لمركز الثقل في صراع الطبقات نحو الصراع بين البورجوازيين والبروليتاريين . وانما في تلك الفترة بالتحديد كتب ماركس منذ ١٨٤٧ — في وقت مبكر للغاية ، بل نستطيع ان نقول قبل الاوان من منظور مخططه التاريخي الذي سأعود اليه في الحال — ان **البروليتاريين لا وطن لهم، الشيء الذي يعني ان القومية او الفكرة القومية يجب ألا يكون لها ،**

فـــي فكر تنظيم عمالي ، **الاسبقية على التضامن الاممي للشغيلة .**

لقد قلت «قبل الاوان» لان «البيان الشيوعي» يعلن مبدأ تاريخيا يمثل في الحقيقة استباقا ما كان يتطابق بعد مع الواقع القائم . وهذا صحيح الى درجـــة ان ماركس وانجلز ، بعد سنة واحدة من كتابة «البيان» ، قد انخرطا هما نفسهما في صراع طبقي في المانيا هو في الوقت ذاته صراع قومي . فقد أعلنا ان النضال في سبيل وحدة المانيا، في سبيل خلق جمهورية المانية واحدة لا تتجزأ ، هو هدف مركزي من اهداف ثورة ١٨٤٨ . وكان رأيهما ان توحيـد المانيا هذا يمثل من وجهة النظر الاقتصادية ، ومن وجهة النظر الاجتماعية ، ومن وجهة النظر الثقافية ، وبخاصة من منظور امكانية انطلاق الحركة العماليـــة والصراع الطبقي ، خطوة هائلة الى الامام .

انكم تعرفون الاسباب التي قضت علـــى ثورة ١٨٤٨ بالاخفاق ، تلك الثورة التي كانت وظيفتهـــا التاريخية ان تنجز المهام التاريخية للثورة الديموقراطية البورجوازية في خمسة اقطار اوروبية هي المانيا وايطاليا والنمسا وهنغاريا وبولونيا (وهي قوميات كانت مدمجة بالامبراطورية النمسوية ـ المجرية وكانت تمتد ايضا الى جزء من الامبراطوريـــــة القيصرية) .

أن مناهضي الثورة الذين انتصروا في معارك ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ هم الذين اضطروا الى تنفيذ وصية تلك الثورة . ان بسمارك ، مجسد الطبقة النبيلة البروسية ، هو الذي حقق

وحدة المانيا ، وليس البورجوازية او البورجوازية الصغيرة او الطبقة العاملة . وقد تكررت الظاهرة نفسها تقريبا في ايطاليا حيث تمت وحدة البلاد على أيدي آل سافوا .

لقد اضطر ماركس في تلك الحقبة الى ان يتخذ موقفا عمليا يختلف بعض الاختلاف عن المبدأ العام المعلن عنه في «البيان» . وفي الواقع ، ان مبدأ «ليس للبروليتاريين وطن» لا ينطبق الا على العصر الذي تكون فيه الثورة البورجوازية قد أنجزت . والحال ان عام ١٨٤٨ قد واجه ماركس وانجلز بوضع **تطور مركب** .

بعبارة اخرى : ان سيرورة ثورة دائمة أصبحت مدرجة على جدول الاعمال في جميع الاقطار الاوروبية التي لم تتمكن فيها البورجوازية من تحقيق الوحدة القومية ، لانها ظهرت متأخرة اكثر مما ينبغي على خشبة المسرح التاريخي ، الى حد ما ، في زمن كانت فيه الطبقة العاملة قد غدت على درجة كافية من القوة لتلعب دورا سياسيا مستقلا ، وفي وقت كان فيه خوف البورجوازية من تعزيز السيرورة الثورية اقوى من رغبتها في تحقيق مهمة الوحدة القومية .

على كلٍ ، في تلك الفترة بالذات ، وفي ذلك السياق بالتحديد ، استعمل ماركس في عام ١٨٥٠ ، لاول مرة في تاريخ الفكر الماركسي ، صيغة **الثورة الدائمة** . فقد قال انه يتوجب على عمال المانيا ان يبدأوا بدعم النضال في سبيل وحدة البلاد وفي سبيل الظفر بجمهورية بورجوازية ديموقراطية ، لكن لا يجوز لهم ان يتوقفوا عن النضال حين يمسي الظفر الكلاسيكي بالديموقراطية البورجوازية امرا

مكتسبا مؤكدا . ان عليهم ان يتابعوا النضال ، مدافعين عن مصالحهم الطبقية الخاصة ضد البورجوازية ؛ ولا يجوز لهم في اي لحظة من اللحظات ان يتخلوا عن تنظيمهم المستقل، ولاسيما انه من غير المحتمل ، ان لم يكن مستحيلا ، ان يتم انجاز تلك المهام البورجوازية عينها تحت قيادة البورجوازية. ومن الارجح بكثير ان البورجوازية الصغيرة اليعقوبية ، وسيفها في ظهر الطبقة العاملة ، هي التي ستحقق تلك الوحدة القومية .

هذا ما كانه المخطط الممكن لثورة ١٨٤٨ . لكنه لم يوضع موضع التنفيذ ، وقد دفعنا ثمنا باهظا بسبب هذا الفشل ، لان كل ما جيشته المانيا ، بنتيجة ذلك ، من قوى محافظة ورجعية قد أثر في مصير اوروبا ، بما فيه مصير الامبريالية ألالمانية ، وبما فيه ولادة النازية .

الملاحظة الثالثة : اذا كانت القومية ثمرة الصراع الطبقي البورجوازي ضد القوى الاقطاعية وشبه الاقطاعية ، فان الامية البروليتارية هي ثمرة صراع الطبقة العاملة ضد الرأسمالية . ان البورجوازية تطور القوى الانتاجية على اساس اسواق قومية موحدة . وبضائعها تغزو وتكون السوق العالمية . لكن هذه السوق غير موحدة : فليس هناك تطور عالمي شامل للصناعة الرأسمالية . فالرأسماليون يزاحم بعضهم بعضا على اساس الاسواق والدول القومية . وهم يحاولون ان ينقلوا هذه المزاحمة الى قلب الطبقة العاملة .

ويرد العمال الاكثر وعيا ـ منذ زمن **الاممية الاولى** ـ

بأنه من مصلحتهم ، بما فيها مصلحتهم الاقتصادية المباشرة، ان يعارضوا مزاحمة الراسماليين العالمية بتضامن الشغيلة الاممي . فبدون هذا التضامن يبقى الشغيلـــة بلا دفاع ، ويسحقهم الراسمال دون وازع . ذلك لان الرد الوحيـــد الناجع الذي يملكونه ازاء التفوق الهائل في القوة الماليـــة والسلطة السياسية لهذا الراسمال ، هو الرد بالتنظيـــم التضامن والتعاون على اوسع نطاق ممكن ، دون ان يحده حد او عرق او جنس .

هنا نصل الى الشق الرابع حيث تبدأ القاعدة التـــي ساقها ماركس في«البيان الشيوعي» تأخذ تطبيقها الشمولي. نعني بذلك بداية العصر الامبريالي حين تكون بورجوازيـــة بلدان أوروبا الغربية والوسطى ، وبالتبعية بورجوازية أقطار مثل اليابان وروسيا والولايات المتحدة ، قد استنفدت كـل امكانية لاداء دور تقدمي في التاريخ ، وتكون قد اصبحت طبقة محافظة ، رجعية ، مناهضة للثورة ، تستغل قسما كبيرا من العالم بالاضافة الى استغلال طبقتهـــا العاملة ، وحين تمسي نزعتها القومية **رجعية** خالصة في أنظـــار الماركسيين ، وفي المقام الاول لينين والمدرسة اللينينية ، وكذلك في أنظار جميع اولئك الذين كانوا يعدون أنفسهم ماركسيين قبل الحرب العالمية الاولى .

لقد ردد كاوتسكي نفسه وغـــيره من الاشتراكيين ـ الديموقراطيين قبل ١٩١٤ انه حين تستخدم البورجوازية الامبريالية عبارة الدفاع عن الوطن او الدفاع عن الامة ، فان ما تعنيه بذلك ليس «الدفاع عن كيان ثقافي او عن حقوق

ديموقراطية» ما ، وانما الدفاع عن مواقعها في السوق العالمية ، والدفاع عن فائض أرباحها الاستعمارية ، والدفاع عن امكانية استغلال ذلك الجزء من العالم الذي تسيطر عليه استغلالا مفرطا لا يحده حد .

انني لا ارى في ما جرى في العالم منذ ١٩١٤ مبررات لوضع هذا الحكم موضع شك . فلو تفحصنا التحليلات التي أجراها علماء اجتماع او مؤرخون او اقتصاديون مشهورون وأذكياء ، ممن توخوا نفي ذلك الترابط السببي السافر بين الشوفينية والامبريالية والمصالح المادية للبورجوازية الامبريالية ، لرأينا ان مآلها جميعا كان الى افلاس تام .

وأكثر مثال لفتاً للنظر ومدعاة للاسف في آن معا ، اذا جاز التعبير ، هو مثال الاقتصادي النمسوي الكبير شومبتر ، احد كبار مفكري القرن العشرين خارج نطاق الماركسيين ، الذي كتب مقالة نابهة ليثبت ان الامبريالية والشوفينية لا دخل لهما بظاهرة بورجوازية الاحتكارات ، وساق دليلا على ذلك كون البلد الذي يملك اقوى الاحتكارات ليس امبرياليا وليس شوفينيا . وكان يقصد به الولايات المتحدة الاميركية. ربما كان ذلك مقنعا في عام ١٩١٢ ؛ ولكنه أقل اقناعا في عام ١٩٧٠ اذ يحمل على السخرية. وبالمقارنة مع هذا الضرب من التحليلات ، تصمد التنبؤات التي أطلقها الماركسيون والتعاريف التي صاغها لينين في كراسته عن الامبريالية عام ١٩١٧ صمودا اقوى امام امتحان التاريخ ، وتتكشف عن انها أدوات انفع بما لا يقاس لتفسير ما حدث في القرن العشرين.

هل يعني هذا ان الماركسيين ، وبخاصة المدرسة اللينينية التي أدعي الانتساب اليها يوحدون كل فكرة قومية وكل نزعة قومية في القرن العشرين مع القوموية الامبريالية؟

انهم لا يفعلون ذلك . فثمة في كتابات ماركس الشيخ، ماركس السنوات العشر الاخيرة من حياته ، فكرة ستتطور في الفكر الماركسي في العصر الامبريالي كي تحتل مكانة حيوية فيما يتعلق بتقييم المعزوفات القومية في زماننا. المقصود بها تلك الفكرة البسيطة ، وربما حتى التبسيطية — لكني أعتقد ان البساطة تسمح في بعض المرات بالوضوح — القائلة **انه ينبغي التمييز بين قومية المضطهدين والمستغلين وقومية المضطهَدين والمستغلين** . اقول ان الفكرة تعود في اصلها الى ماركس . فماركس كان اول من طور هذه الفكرة بدلالة مسألتين عينيتين كان يعلق عليهما اهمية عظمى في كل استراتيجيته عن صراع الطبقات الاممي: الوضع البولوني والوضع الارلندي .

لن أتعرض هنا للمسألة البولونية لانها معروفة جيدا (وقد جرى بالاصل مرارا تأويلها تأويلا خاطئا بصفتها آلة حرب خاصة ضد النظام القيصري ، محض آلة حرب ضد النظام القيصري دون ان يكون لها اي صلة بمبدأ اكثر أساسية) .

اما المسألة الارلندية فهي أوضح وأدق بكثير بصدد الموضوع الذي نحن فيه . فبدءاً من ١٨٦٩ — ١٨٧٠ كتب ماركس ، في مقال ظهر في صحيفة بلجيكية كانت تسمى «الاممية» ، انه ما لم يدرك العمال الانكليز ان من واجبهم

مساعدة الارلنديين على الفوز باستقلالهم القومي ، فلن يصنعوا ابدا ثورة اشتراكية في انكلترا .

بدلا من أن ينطلق ماركس من فكرة ان القومية الانكليزية والقومية الارلندية متعادلتان ، وان قومية الامة الظالمة وقومية الامة المظلومة متماثلتان ، انطلق من التمييز الجوهري التالي (واعتقد ان التاريخ اكد صواب نظرته) : ان استغلال البورجوازية الانكليزية للامة الارلندية واضطهادها اياها سيكون من نتيجتهما ـ اذا لم يتقمص العمال الانكليز نضال العمال الارلنديين ـ ان الصراع الطبقي سيخسر لحقبة طويلة من الزمن العمال الارلنديين الذين سيمثلون اقلية متنامية من البروليتاريا الانكليزية والذين لن يكون في مستطاعهم ان يؤلفوا جبهة مشتركة ضد ارباب العمل الانكليز ، وذلك ما دام العمال الانكليز سيشكلون في الواقع جبهة مشتركة مع البورجوازية الانكليزية ضد الامة الارلندية .

ان ما يختص به العصر الامبريالي هو ان ذلك التمييز بين قومية المستغِلين وقومية المستغَلين لا يقصي البروليتاريا عن النضال في سبيل السلطة وفي سبيل الاشتراكية ، بل على العكس يقربها منه . ذلك ان مهام التحرير والتوحيد القوميين للامم المضطهَدة لا يمكن انجازها بعد اليوم ، في العصر الامبريالي ، الا عن طريق تحالف البروليتاريا والفلاحين الفقراء ، تحت القيادة السياسية للبروليتاريا ، وبواسطة اقامة دكتاتورية البروليتاريا .

ان انتصار الثورة في قطر متخلف ، بقيادة بروليتارية ، لا يمكن ان يقتصر على حل مشكلاته القومية والديموقراطية ،

وانما يشعل هذا الانتصار فتيل سيرورة ثورة دائمة، ويفضي الى حل المهام التاريخية للثورة الاشتراكية ، ويحفز امتداد الثورة الاممي الى الاقطار الرفيعة التصنيع ، حيث المهام المباشرة للثورة الاستراكية .

ان سخطا عظيما ينتابني حين أرى شخصا مثل غي موليه يعطي الامثولات في الاممية ويعلن ، يوم كان رئيسا اشتراكيا ـ ديموقراطيا لوزارة فرنسا الامبريالية ، ان أولئك الجزائريين على خطأ من امرهم اذ يطالبون بالاستقلال القومي في القرن العشرين ، في عصر باتت فيه فكرة الامة متجاوزة بالية . لقد كان في امكان كل ذي حس سليم ان يرد على السيد غي موليه قائلا : «يا لها من فكرة ممتازة : فكرة ان الامة تخطاها الزمن ! لماذا لا تبدأ انت بتخطي فكرة الامة الفرنسية ؟ لماذا تطلب اولا الى أمة مظلومة ان تتخطى الفكرة القومية في حين انك تأبى ، كزعيم لدولة استعمارية ومضطهِدة ، ان تتخطى تلك الفكرة القومية ؟» . فالمثال لا ينبغي ، على كل حال ، ان يأتي من العبد . وليس العبد هو من ينبغي ان يطالب بالامتناع بعد اليوم عن اللجوء الى العنف للتخلص من قيوده . واذا كنا نريد ان نتكلم بمثل هذه اللهجة ، ينبغي أن نبدأ بمطالبة الدركي ومالك العبيد بأن يتوقفا عن الاضطهاد، بأن يكفا عن حماية استغلالهما بالعنف. وبعد ذلك نرى .

اقول انني لا استطيع ان أتعاطف البتة مع أولئك الذين يضعون اشارة تطابق ومساواة بين قومية المظلومين وقومية الظالمين . فبقدر ما ان قومية الظالمين ممقوتة ولا يمكن ان

تتمخض عن اي تقدم ، سواء اكان ايديولوجيا ام سياسيا ، ينبغي بالمقابل ان نحسب حساب عدد اكبر بكثير من الاعتبارات حين يكون الامر متعلقا بقومية المظلومين .

حين نتكلم عن شعوب مستعمَرة ـ ليس فقط عن الشعوب المستعمَرة من الخارج ، الشعوب القاطنة في مستعمرات خارجية ، وانما ايضا عن شعوب المستعمرات الداخلية نظير الزنوج في الولايات المتحدة الاميركية ـ وحين نعاين الوضع المؤسي الذي تعيش فيه هذه الاقوام المضطهَدة ، وحين نشاهد انها ضحايا اضطهاد اقتصادي وسياسي وأخلاقي وثقافي ، وان هذا الاضطهاد الاخلاقي والثقافي يمثل في غالب الاحيان البنية الفوقية الضرورية لاستمرار الاضطهاد الاقتصادي والسياسي ؛ حينئذ ارى نفسي مضطرا الى ترداد ما قاله تروتسكي قبلي : ان ولادة الوعي القومي في قومية تعاني من الاضطهاد ما تعاني ، ومحاولة التحرر لا من الامبريالية الاقتصادية والسياسية فحسب بل ايضا من الامبريالية الثقافية ، يشكلان خطوة اولى على طريق وعيها لكرامتها الانسانية ، وعندئذ يكون قد تحقق تقدم عظيم للانسانية .

ينبغي ان نتذكر ما كانت عليه حال العبيد السود في القرن التاسع عشر . ينبغي ان نتذكر ما كان عليه وضع المزارعين السود بعد **حرب الانفصال** في الولايات المتحدة الاميركية ، حتى نفهم ان يقظة الوعي القومي لدى هذه الشريحة من الانسانية التي تعاني من استغلال واضطهاد يفوقان كل حد تمثل تقدما عظيما . **انها لمرحلة لا مفر منها**

على الاطلاق ولا غنى عنها على الاطلاق حتى تتاح ، في حقبة لاحقة ، امكانية اندماج هذا الضرب من القوميات المضطهَدة في انسانية وصلت اخيرا الى وحدتها .

ان الاممية ستؤدي الى انصهار الامم في مجتمع عالمي لا طبقي . لكن هذا الانصهار سينجم عن تساوي الامم ، وهو التساوي الذي لا بد ان يكون قد تحقق اولا . اما ما دامت الامم لامتساوية ، فلن تشهدوا ابدا زوال الوعي القومي لدى المضطهَدين ، لانه لا وجود لحسن الحظ لاي قوة قادرة على اخماد شرارة التمرد والثورة ، مما يعني انه لن يكون هناك ابدا قبول سلبي بالظلم واللامساواة ، في اي شكل ، كائنا ما كان .

مكسيم رودنسون :

اود ان اقول بضع كلمات ردا على نقطتين او ثلاث أثارها مانديل . لقد كان على حق حين انتقدني على الصيغة التي قلت فيها ان ماركس تكلم عن اقتصاد مدوّل. والواقع، ان لساني خانني ، وماندیل مصيب تماما . فماركس حين كان يتصور المستقبل ، لم يكن واضحا كل الوضوح ، وقد جاءت بعض افكاره متناقضة نوعا ما ، في التفاصيل على ما يبدو . وقد تكلم، اكثر ما تكلم، عن المنتجين المتشاركين.

على كل ، كان ماركس يتصور ان الدولة ستضمحل ببطء ، وبالتالي انه ما دام هؤلاء المنتجون المتشاركون على مستوى القاعدة مشتركين في تعاونيات في اماكن الانتاج

فسوف يكون هناك ايضا ، لفترة ما على الاقل ، تشارك بين هذه الوحدات الانتاجية على نطاق اوسع . وليس المقصود بذلك الدولة بالضرورة ، فالامر عنده ليس واضحا كل الوضوح .

ما آخذه على ماركس هو انه لم يتبين عوامل التناضد الطبقي في تلك المرحلة ، وذلك بخلاف باكونين — لدينا تدوينات موضحة لذلك كان قد وضعها على هامش احد مؤلفات باكونين — وأعتقد ان باكونين رأى الامور هنا على حقيقتها حين قال : في مشروع المجتمع الذي يعده السيد ماركس (او الدكتور ماركس) ستتكون حتما طبقة جديدة تضطهد الطبقات الاخرى .

وقد رد ماركس ، وهو المفكر الكبير — هذا ما نتفق عليه جميعا — رد في ملاحظة صغيرة على الهامش لا اكثر : «لو كان السيد باكونين مطلعا فقط على وضع مدير تعاونية عمالية ، لضرب صفحا عن جميع كوابيسه بصدد السلطة» (١) . وهذا معناه نقل وضع العامل حين يتوصل ضمن اطار المجتمع الراسمالي الى الانعتاق على صعيد صغير وجزئي للغاية ، نقله بلا حق وبلا مسوغ — لان المرء ، كما قال ماركس بنفسه في مناسبات اخرى ، يقف موصد الذهن امام مشكلة تستأثر بكامل اهتمامه — الى مجتمع المستقبل

---

١ — انظر هنري ماير : «ماركس عن باكونين : نص مهمل» ، في «دراسات ماركسولوجية» .

وسحبه عليه بصورة آلية . اقد كان في ذلك تهور كبير ، على ما أعتقد .

ثانيا : هناك حالات استغلال شعب بأسره واضطهاده من قبل شعب آخر . وقد سبق ان ذكر لنا مثال ارلندا وبولونيا في اوروبا . وهناك حالات أستعمارية ايضا ، جلية كل الجلاء. وأعتقد انالقول بأنه ايس للبروليتاريين مصلحة حقيقية في تلك السيطرة وذلك الاستغلال هو بمثابة تمويه لهذا الواقع .

كان ماركس يتكلم عن واجب البروليتاريين المقدس في النضال ضد اضطهاد بورجوازيتهم للآخرين ، وهذا أمـــر جدير بالتوقف عنده ، لان الماركسيين ، بدءاً من ماركس نفسه ، قد اعتادوا على انكار كل قاعدة اخلاقية مستقلة بذاتها . كذلك كان ماركس ينقصد ان يصرح بأن ما يحركه ويحفزه ليس الدوافع الاخلاقية ـــ فقد كان أشد ما يغيظه وما يزال يغيظ الماركسيين حتى في يومنا هذا ان يقال انهم ينشدون مثلا اعلى ـــ لكن يخيل الي ان الكلام عن واجب مقدس هو بدوره كلام أخلاقي .

مهما يكن من امر ، فقد كان ماركس يعتقد ان النضال ضد الاستعمار الانكليزي هو في صالح ألعمال الانكليز ، غير انني لست مقتنعا بذلك . وبالفعل ، انني أرى ان هنـــاك اوضاعا عديدة يكون فيها لشعب بأسره مصلحة في اضطهاد شعب آخر بأسره ، وبخاصة في الحالة الاستعمارية . فمما لا مراء فيه ، على ما يخيل الي ، ان فرنسيي الجزائر على سبيل المثال ، الاقدام السود في الجزائر ، كانت لهـــم

مصلحة ، بصورة اجمالية وجماعية ، بما فيهم الصغـار الصغار منهم ، في المحافظة على امتيازاتهم بالنسبة الـى جماهير العرب والبربر ، وبالتالي في اضطهاد هـذه الجماهير .

كذلك يمكن القول ان المجتمع الابيض في الولايات المتحدة الاميركية يضطهد ، بالاجمال ، المجتمع الاسود . وهنا ايضا لا بد من الاشارة الى بعض الفروق ، اذ ان هناك بورجوازية سوداء على سبيل المثال ، لكن الامور هي على نحو ما قلنا ، اجمالا . وأعتقد — راجيا ألا ينزعج بعض اصدقائنا — ان ذلك ما يجري الى حد كبير في فلسطين (١) .

تعلمون انه كان بين «الاقدام السود» في الجزائـر الكثيرون ممن كانوا يصوتون في الانتخابـات للاشتراكيين والشيوعيين ، ثم صاروا من العناصر الاشد تصميما فـي «منظمة الجيش السري» . قبل ذلك ايضا كانوا مصممين ، كانوا شيوعيين مصرين على المطالبـة بحقوقهم حيـال البورجوازية الفرنسية المتروبولية . ولم يكونوا أقل عزما في

---

١ — هذا موقف لرودنسون يستحق التقدير، اذ قليلون هم اليساريون في اوروبا الذين ادركوا ان جوهر الصراع العربي — الاسرائيلي هـو اضطهاد قومي من قبل شعب بأسره (وان يكن قيد التكوين) لشعب آخر بأسره . وهذه حقيقة مال حتى بعض «الطبقويين» من اليساريين العرب الى تناسيها في السنوات الاخيرة . —م—

المطالبة باستمرار امتيازاتهم كمستغِلين للجماهير العربيــة والبربرية .

انني بدوري موافق تماما على التمييز بين قومية الشعب المظلوم وقومية الشعب الظالم . لكن ما أريد التشديد عليه، بالنسبة الى المستقبل اكثر مما للحاضر ، تجاه اصدقائي في العالم الثالث وبخاصة في العالم العربي ، هو ان كون المرء مضطهَدا ـ كما نرى في حالة اليهود مثلا ـ ليس ضمانة ضد تحوله الى مضطهِد في مرحلة لاحقة . ما أريد الالحاح عليه هو انه لا يجوز للمرء الركون براحة بال الى كونــــه مضطهَدا . ولقد أغاظني ضمير اليهود المستريح الى درجة كافية كي أسمح لنفسي بفضحه لدى الآخرين ايضا .

لدينا حالة بولونيا على سبيل المثال . ففي القرن التاسع عشر ، وفي أنظار جميع الليبراليين وجميع الديموقراطيين وجميع الاشتراكيين في اوروبا ، كانت بولونيا تمثل الحالة النموذجية للأمة المضطهَدة التــــي تستوجب نذر النفس والتفاني في سبيلها . ولكنها ما ان استقلت حتى شرعت على الفور باضطهاد الآخرين .

بصدد هذا الموضوع ، أود ان أقرأ عليكم نصين قصيرين جدا للينين ، لانهما من النصوص غير السهلة المنال التي قلما يُستشهد بها . هاكم كراسة صادرة في موسكو بالفرنسية، وقد أعيد طبعها في فرنســـا من قبل «المنشــــورات

الاجتماعية» (١) لكن بعد حذف مقالين من المقالات الاربعة التي تتألف منها الكراسة . هل السبب في ذلك ان المقالين المحذوفين يتضمنان مقاطع فيها إحراج لبعض الماركسيين ، وعلى الاخص الشيوعيين الستالينيين ، ولكن فيها ايضا حافز للجميع على التفكير ، على ما أعتقد ؟ الحق انه لم تجر العادة على أن تعزى الى لينين افكار بمثل هذا الوضوح عن مرحلة ما بعد الثورة :

«**من المستحيل** ، في ظل الراسمالية ، الغاء النير القومي (والنير السياسي بوجه عام) . فذلك **يقتضي** الغاء الطبقات ، اي أقامة الاشتراكية . لكن الاشتراكية ، وان ارتكزت الى الاقتصاد ، لا ترتد البتة الى الاقتصاد وحده . لازالة الاضطهاد القومي ، لا بد ان يكون هناك أساس: الانتاج الاشتراكي ، لكن **لا يزال** من الضروري ان يقوم على هذا الاساس تنظيم ديموقراطي للدولة ، وجيش ديموقراطي ، الخ . فالبروليتاريا ، بتحويلها الرأسمالية الى اشتراكية ، تخلق امكانية الغاء تام للاضطهاد القومي ؛ لكن هذه الامكانية تصبح **حقيقة واقعة** فقط — فقط ! — مع أكتمال اقامة الديموقراطية في جميع الميادين (اذن ، هي لا تقام بصورة آلية بالاقتصاد المسمى اشتراكيا — م.ر) حتى وبما فيها تعيين حدود الدولة وفقا لـ «مشاعر» السكان ، حتى وبما

---

١ — «المنشورات الاجتماعية» : دار نشر تابعة بصورة شبه رسمية للحزب الشيوعي الفرنسي . —م—

فيها حرية الانفصال الكاملة» (١) .

المقطع مقتضب ، لكن في تأمله نفعا وجدوى على ما أعتقد . هنالك مقطع مقتضب آخر ، هو ذاك الذي يورد فيه لينين رسالة من انجلز الى كاوتسكي في ايلول ١٨٨٢ ؛ وفيها يتكهن انجلز بالفترة التي قد تحدث فيها الثـورة الاشتراكية في اوروبا . ومن خلال رؤية انجلز للعصر ؛ يتضح أن اوروبا ستكون متقدمة غاية التقدم عن سواها ؛ ومن المحتمل ان البلدان الاخرى ، البلدان المستعمَرة ، لن تفهم هذه الاشتراكية ، وقد تستنفر وتجند ضدها :

«ما المراحل الاجتماعية والسياسية التي ينبغي ان تمر بها هذ البلدان قبل بلوغها بدورها التنظيم الاشتراكي ؟ ليس في وسعنا ان نجيب اليوم على ذلك الا بفرضيات لا نفـع فيها ، كما أعتقد . لكن هناك امرا واحدا لا يقبل مماراة ؛ كما يقول انجلز ، وهو ان البروليتاريا المنتصرة لا تستطيع ان تفرض سعادة ما على شعب اجنبي من دون ان تعرض للخطر انتصارها بالذات» .

ان انجلز ، كما شرح لينين ، «لا يؤمن البتة بأن العامل الاقتصادي كاف بذاته لتذليل جميع الصعوبات مباشرة .

---

١ ـ «حصيلة المناقشة حول حق الامم في تقرير مصيرها» (١٩١٦) في ف. ا. لينين «ملاحظات نقدية حول المسألة القومية ...» ، موسكو، ص ١٣٨ ، وكذلك في «المؤلفات الكاملة»، المجلد٢٢ ، (باريس : المنشورات الاجتماعية ، وموسكو : دار النشر باللغات الاجنبية ، ١٩٦٠) ، ص٣٤٩ .

فالثورة الاقتصادية ستحض **جميع** الشعوب على **التوجه** نحو الاشتراكية ؛ بيد ان هنالك مع ذلك امكانية لثورات ضد الدولة الاشتراكية ولحروب . وسوف يتكيف النظـــــام السياسي لا محالة مع النظام الاقتصادي ، لكن ذلك لن يتم دفعة واحدة ، بدون صدامات ، ومباشرة . ان «الامـــر الذي لا يقبل مماراة» في نظر انجلز هو مبدأ واحد ينطلق في أمميته يطبقه على **جميع** «الشعوب الاجنبية» ، اي ليس على الشعوب المستعمَرة وحدها : وهو ان فرض سعادة ما يعني تعريض انتصار البروليتاريا للخطر . فالبروليتاريا لن تصبح قديسة لمجرد انها انجزت الثورة الاجتماعية ، ولـــن تغدو محصنة ضد جميع ضروب الخطأ والضعف . لكـــن الاخطاء الممكنة (والمصالح الخسيسة التي تدفع الى الركوب على ظهر الآخرين) (ملحوظة : بعد الثورة الاشتراكية ! م.ر) ستقودها حتما الى وعي تلك الحقيقة» (١) .

يخيل الي ان هذه النصوص تسلم ، في حدود معينة ، بأن حل مشكلة الطبقات لا يقدم حلا آليا للمشكلات القومية كافة .

كلمة مقتضبة اخرى . حين يقال ، من وجهة نظـــر تاريخية (كما قيل هنا) ، ان الاسرائيليين مضطهَدون بحكم كون الفلسطينيين لا يعترفون بحقهم في الوجود ككيــــان

---

١ ـ «حصيلة المناقشة ...» في «ملاحظات نقدية ...» ، ص١٧١ ، وكذلك في «المؤلفات الكاملة» ، المجلد ٢٢ ، ص ٣٧٩ .

قومي ، فهذا اضطهاد على درجة كبيرة من التجريد فيالوقت الراهن . وينبغي ان نفهم انه اذا كان الاسرائيليون يعانون من اضطهاد مجرد ، على نحو هو في منتهى التجريد، فهذا لانهم بدأوا يصيرون مضطهِدين في الممارسة ، وهو امر تحمله أصعب بكثير على كل حال (١) .

---

١ ــ لا يرد رودنسون هنا على مانديل ، وانما على صحفي اسرائيلي «يساري» يدعى فكتور سيجلمان . فقد قال في المناقشة ان «احد الاخطاء التي كثيرا ما يرتكبها أولئك الذين يريدون تصنيف النزاع الاسرائيلي ــ الفلسطيني في مقولات شديدة التحديد ، مقولات المضطهِدين والمضطهَدين ، والذين يريدون ان يروا في اولئك الناطقين بلسان امة مظلومة ، وفي هؤلاء الناطقين بلسان امة ظالمة ، هو انهم لا يتفحصون المشكلة فيكل تعقيدها ... ويخيل الي انخصوصية النزاع الاسرائيلي ــ الفلسطيني تكمن في ان الاسرائيليين والفلسطينيين على حد سواء متواجدون في المعسكرين . أعني انهم من بعض الجوانب مضطهِدون ، ومن بعض الجوانب الاخرى مضطهَدون . ان اسرائيل تضطهد العرب الفلسطينيين ... واسرائيل في الوقت نفسه تعاني من نوع من الاضطهاد بحكم كون العالم العربي ــ وعلى الاخص الشعب الفلسطيني ــ ينكر على الشعب والامة الاسرائيلية الحق في الوجود بالذات ... وأعتقد ان هذه العلاقة المزدوجة ، حيث الاسرائيليون مضطهِدون ومضطهَدون في آن واحد ، وحيث الفلسطينيون بدورهم مضطهَدون ومضطهِدون ، هي التي تحدد مدى تعقيد المشكلة» .

وعلى أطروحة سيجلمان «الجدلية» هذه يرد رودنسون . ــ م ــ

من جهة اخرى ، ان التشهير باليهود على انهم غرباء في روسيا لا يتماثل والتشهير بهم على انهم غرباء في فلسطين[1]. فالوضعان مختلفان هنا كل الاختلاف . ففي روسيا يشكل اليهود ، بالفعل ، جزءا من السكان الاصليين ، حتى ولو انهم من اصل اجنبي بعيد جدا ؛ يشكلون أقلية غير محظوظة . أما في فلسطين فالامر مختلف جدا .

لست اقف موقفا ايمانيا من برامج الفلسطينيين واستراتيجياتهم وتكتيكاتهم (بل انني في موقف النقد المتشدد ازاءهم) ، لكن لا بد مع ذلك من الاعتراف بشيء اكيد وبسيط ، وهو أنه في بداية الصهيونية السياسية في عام ١٨٩٧ ، وقبيل ذلك بقليل ، حين كان هرزل والمتقدمون عليه يقولون انه ينبغي تحويل فلسطين الى دولة يهودية ، فلسطين التي كانت آنذاك بلدا عربيا كما نقول ان فرنسا فرنسية وبلجيكا بلجيكية ، لا ارى منطقيا كيف كان يمكن ان يتحقق ذلك الا بواحد من طريقين : اما اخضاع السكان الاصليين واما طردهم . لست ارى كيف كان يمكن ان يتم ذلك التحويل بغير احد هذين السبيلين . وهذا ، بالاصل ، ما حدث عمليا .

---

١ – يرد رودنسون ههنا ايضا على سيجلمان . فقد كان هذا قد قال في المناقشة ان العرب اذ ينظرون الى اليهود على انهم «غرباء» ينزلون بهم اضطهادا شبيها بذاك الذي كان يعاني منه اليهود في روسيا القيصرية بوصفهم عمالا وبوصفهم يهودا من اصل اجنبي في آن واحد . –م–

ارنست مانديل :

لقد طرحت عليّ اسئلة كثيرة ، وعندي ملاحظات عديدة ابديها ، وبخاصة حول ما قاله غوريلي ، بحيث ان الوقت المعطى لي لن يكفي . لا مناص لي اذن من تخييب أمل بعض الحاضرين ، لانه يتعذر عليّ ان اجيب على الاسئلة جميعا في عشر دقائق .

سأوجز جوابي على السيد غوريلي ، الذي سجل على نفسه بالاصل بعض التراجع الحذر في مداخلته الثانية بالنسبة الى ما كان قد قاله سابقا ، مذكرا اياه بالتفريق الذي أجراه لينين بين الجدل والسفسطة (١) . فالسفسطة تتميز عن الجدل بكونها لا تعترف بأن هناك شيئا ما مطلقا في التفريق بين النسبي والمطلق . انها تحاول اذن ان تمحو جميع الحدود بين المقولات وكل تمييز بينها ، وتجعل كل شيء نسبيا بلا استثناء . ليس ذلك هو الجدل . ليس الجدل جعل كل شيء نسبيا ، ليس الجدل ، على سبيل

---

١ ــ كان جورج غوريلي ، الاستاذ في جامعة بروكسل ، قد شارك في الندوة ، وقال في مداخلته الثانية ان هناك حالات من الاضطهاد القومي غير واضحة الحدود والمعالم كل الوضوح ، وبالتالي لا مجال فيها للتمييز تمييزا مطلقا بين الظالمين والمظلومين ، بن المضطهِدين والمضطهَدين ، وذلك كما في النزاع الاسرائيلي ــ العربي على حد تقديره . ــم ــ

المثال ، الغاء كل تمييز بين الحياة والموت . ان الجـــدل يعترف بوجود حالات انتقالية ، وبأن المقولات ليست جامدة، وبأنه ليس بينها هوة مطلقة ، لكنه لا يفترض أن كل تمييز بين المقولات عام الدلالة ، او ثانوي ، او حتى غير موجود .

انني لا أجادل البتة اذن في وجود حالات انتقالية بين المضطهِدين والمضطهَدين ، لكن ذلك لا يسوغ البتة عـــدم التمييز بين المضطهِد والمضطهَد ، بين قوميـــــة الشعب المضطهِد وقومية الشعب المضطهَد . فعدم التمييز هـــذا سفسطة فجة ابتعد عنها بحذر غوريلي ــ أكرر ذلك ــ في مداخلته الثانية .

كذلك من الخطأ المحض الادعاء بأن الماركسية كانت منذ بداياتها متغربة ، وبأن ماركس نفسه ما كان لديه تفهـــم لمشكلات شعوب «العالم الثالث» (١) . سأضرب ثلاثة أمثلة:

١ ــ كان موقف ماركس ايجابيا مئة بالمئة من انتفاضة

---

١ ــ كان غوريلي قد لمح في مداخلته الاولى الى وجود نزعة غربية في ماركسية ماركس ، بل تحدث حتى عن «نبرة استعمارية ، بلـــه عنصرية» لديه . وقد ايده في ذلك جورج غرينباس ، وهو ماركسي بلجيكي شارك في المناقشة ، وتحدث عن نزعة غربية متطرفة في الماركسية ، وتساءل عما اذا كان مفهوم البروليتاريا الغربي يصلح للتطبيق على العالم الثالث . ــم ــ

سيباي (١) التي هي ، الى حد ما ، اول انتفاضة كولونيالية في القرن التاسع عشر ، وهذا بالرغم من كون زعماء انتفاضة السيباي تلك من الاقطاعيين والملاك العقاريين شبه الاقطاعيين .

٢ ـ كان موقف ماركس ايجابيا مئة بالمئة ايضا من انتفاضة التاي ـ بنغ (٢) ، التي كانت اول نذير للثورة الصينية .

٣ ـ بالنسبة الى الموجيك الروس ، انني مضطر لان اقول للسيد غوريلي وللرفيق غرينباس على حد سواء انهما لا يعرفان تاريخ موقف ماركس من روسيا ، والا لكانا ادركا ان ماركس اكد ، في السنوات العشر الاخيرة من حياته ، وبخاصة في المقطع الذي سبق للاستاذ رودنسون ان اشار اليه ، انه ليس مستبعدا البتة ان ينتقل الموجيك الروسي

---

١ ـ انتفاضة السيباي انتفاضة وطنية مشهورة في تاريخ الاستعمار الانكليزي للهند في عام ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ ، والسيباي كلمة برتغالية مشتقة من الفارسية ، اطلقت على الجنود الهنود العاملين في الجيش الانكليزي .

ـ م ـ

٢ ـ التاي ـ بنغ (مملكة السلام العظيم السماوية) : حركة معادية للاقطاع قامت في الصين في عام ١٨٥١ ، وتحولت الى حرب فلاحين واسعة ، تم القضاء عليها بواسطة تدخل قوات الدول الغربية الاستعمارية.

ـ م ـ

الى الشيوعية مباشرة من دون المرور بالرأسمالية . تلك كانت آخر كلمة لماركس بصدد الغياب المزعوم للوظيفة التاريخية للموجيك الروسي . وقد أعاد الاشتراكيون ـ الديموقراطيون النظر في ذلك فيما بعد ، وكانوا في ذلك مصيبين اصلا . ذلك لان ماركس كان وضع لذلك الاحتمال عددا من الشروط . فقد كان يقول : اذا استمرت المشاعة القروية ، واذا لم يكن تطور الرأسمالية فائق السرعة ولم يحطم التلاحم الداخلي لهذه المشاعة ، واذا لم يأخذ الانقسام الطبقي طريقه الى القرية ، واذا لم يحطم الاقتصاد النقدي التضامن الاساسي ، فعندئذ لا يكون من المستبعد البتة ان يبادر الموجيك الروس ـ تصوروا ايها الرفاق الاعزاء هؤلاء الموجيك الروس المخيفين المتأخرين الذين بخسهم ماركس المسكين حقهم قبل ان توجه الى تروتسكي تهمة الاستهانة بالفلاحين ـ الى بناء **الشيوعية** في روسيا . هذه الشروط التاريخية التي حددها شرعت بالتلاشي في أواخر القرن التاسع عشر . هذا واضح تماما . وقد اعاد بليخانوف النظر في موقف ماركس هذا ، عن حق ، لان الشروط كانت قد تغيرت في عام ١٨٩٠ عما كانت عليه في عام ١٨٦٥ أو ١٨٧٠ .

اجيب الان على سؤال الرفيقة تسيكا(١) المرتبط اساسا

---

١ ـ مستمعة اخرى شاركت في المناقشة ، وكان رأيها ان الكلام عن مساندة النزعة القومية كثر جدا في السنوات الاخيرة ، وأنه صار شعارا عاما ؟ والحال انه اذا كان التمييز بين قومية الشعب الظالم وقومية =

بالسؤال السابق . هل اكتشفت الماركسية ، هل اكتشف الماركسيون الثوريون ، اللينينيون والتروتسكيون جميعا ، الواقعة القومية في بلدان العالم الثالث بعد الحرب العالمية الثانية فحسب؟ اعيدوا قراءة اطروحات «الامميةالشيوعية»، المكتوبة في عام ١٩٢٠ ، عن المسألة القومية ؛ اقرأوا جميع كتابات لينين قبل الحرب العالمية الاولى وأثناءها ، تجدوا ان اللازمة الرئيسية فيها هي التمييز بين الحروب غير العادلة ، التي هي الحروب الامبريالية التي تشنها الطبقات البورجوازية الامبريالية ، وبين الحروب العادلة التي هي حروب للتحرر القومي للشعوب المضطهَدة . انها لم تكن لازمة في كتابات لينين فحسب ، بل كانت لازمة ايضا في الوقائع . فحين اندلعت في المغرب في عام ١٩٢٥ الانتفاضة الاولى ضد الاستعمار الفرنسي ، تلك الانتفاضة التي قادها اقطاعيون ، كان للحزب الشيوعي الفرنسي شرف منح تأييده الكامل وغير المشروط لهذه الانتفاضة ، وكان ذلك هو العمل الوحيد المعادي حقا للاستعمار والاممي تماما في كل تاريخ الحزب الشيوعي الفرنسي ، وهو عمل فاخر به الحزب الشيوعي الفرنسي والاممية الشيوعية بحق وصواب . وقد

= الشعب المظلوم صحيحا ، فهذا لا يعني ضرورة تأييد جميع تظاهرات قومية الشعوب المضطهَدة ، وبلا قيد او شرط ، وذلك بخلاف ما يفعله الماركسيون منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في تأييدهم المطلق للنزعة القومية في العالم الثالث . —م—

وقعت بعد ذلك بسنة انتفاضة في اندونيسيا ، فساندها الشيوعيون الهولنديون والاممية الشيوعية مئة بالمئة . وبعد ذلك بسنة كانت بداية حرب تحررية في الصين ضد الدول الامبريالية ، فساندتها الاممية الشيوعية ١٠٠ بالمئة .

في عام ١٩٣٧ اندلعت شرارة الحـــرب الصينية ـ اليابانية التي كان يقودها ، من الجانب الصيني ، جـلاد حقيقي للعمال : الماريشال تشانغ كاي شيك . ومع ذلك وقفت جميع اتجاهات الحركة الشيوعية ، بدون اي استثناء البتة ، بما فيها تروتسكي والاتجاه التروتسكي ، موقـف تأييد غير مشروط للصين ضد اليابان ، لانها كانت ترى انها حرب تحررية لشعب مضطهد ، مقهور ، ممـزق على يد القوى الامبريالية الاجنبية . أما فيما لو وضعت اشـارة مساواة بين القومية اليابانية ، التي كانت قومية لصوص وقطاع طرق ، وبين القومية الصينية ، التي كانت قومية عبيد أرقاء بدأوا ينهضون ، فما كان ذلك ليقل بشاعة في ذلك الحين عن بشاعته اليوم في مثال حرب الجزائر وفي مثال حرب فيتنام .

لا جديد اذن على هذا الصعيد . الشيء الوحيـد الجديد ، اذا أمكنني ان اتحدث باسم جماعتـي ، هو ان الحركة التروتسكية ، غداة الحرب العالمية الثانية ، فـي الاعوام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ ، كانت الوحيدة في الحركـة الشيوعية العالمية التي لبثت على اخلاصها لذلك الخط ، بدون اي تنازل لصالح مواقع الاشتراكيين ـ الامبرياليين التي كانت عصرئذ مواقع الستالينيين ، مواقع الاحـزاب

الشيوعية الرسمية . وهؤلاء ايدوا «الاتحاد الفرنسي» . هؤلاء ايدوا سحق انتفاضة ١٩٤٥ الجزائرية التي وصفوها بأنها انتفاضة فاشية . هؤلاء اقترعوا لصالح الاعتمادات الحربية في حرب الهند الصينية الاولى التي أشعلت فتيلها حكومة كان فيها للحزب الشيوعي الفرنسي وزراء . لكن المنظمات التروتسكية أيدت ، بلا تحفظ ، منذ ذلك اليوم ، حرب تحرر الشعب الفيتنامي وحرب تحرر الشعب الجزائري ، ولم يطرأ اي تبديل قط على خطها .

سأرد على سؤال آخر ذي صلة بالسؤال السابق ، وقد طرحه غرينباس . لا اعتقد ان مفهوم البروليتاريا مفهوم خاص بالغرب ، بصورة من ألصور . اننا نتكلم في أرجح الظن عن شيئين مختلفين كل الاختلاف. فمفهومالبروليتاريا بالنسبة اليك مفهوم ايديولوجي في جوهره . اما بالنسبة الي فان مفهومالبروليتاريا مفهوم موضوعي. ان البروليتاري، في نظري ، انسان مكره ، تحت وطأة ضغط اقتصادي ، على ان يبيع قوة عمله . وهذا ينطبق على بروليتاري الهند ، على بروليتاري افريقيا الجنوبية ، على بروليتاري مصر ، على بروليتاري الكونغو البلجيكي سابقا ، اي الكونغو ـ كنشاسا، تماما مثلما ينطبق على البروليتاري الفرنسي ، او على البروليتاري الالماني ، او على البروليتاري الاميركي .

وأرى البرهان على ذلك في واقع انه لا يوجد بلد في العالم ، ولا حتى جزيرة في المحيط الهادىء ، ولا حتى بلد متأخر الى اقصى حد ممكن ، دخلت اليه الصناعة الحديثة وظهرت فيه بنتيجة ذلك البروليتاريا ، لم تحدث فيه

اضرابات ، ولم ينشب فيه صراع بين العمال وأرباب العمل، ولم يبذل فيه العمال محاولات لتكوين نقابات . ليس في العالم كله قطر واحد يشذ عن هذه القاعدة ! بهذا المعنى أؤكد ان المفهوم يصلح للتطبيق عالميا . ان في وسعنا ان نميز مراحل متلاحقة في تكوين الوعي الطبقي . لكن لا مفر لنا من الاعتراف ، حتى في هذه الحالة ، بأن يقظة البروليتاريا العالمية (التي يحتفل بها بعضنا منذ ايار ١٩٦٨ ، وحتى قبل ايار ١٩٦٨ بقليل) كانت لها مفاعيلها حتى في الهند . لقد علمنا للتو ان عمال صناعة النسيج في بومباي ، اي ما يمثل رقما يتراوح بين ٢٥٠ و٣٠٠ الف شخص في فرع صناعي واحد وفي مدينة واحدة . قد كوّنوا ، مثلهم مثل عمال مصانع فيات للسيارات ، مجالس مندوبين منتخبين من داخل المشاغل من أجل استرجاع قيادة نضالهم الطبقي. أمعنوا النظر في هذه الوقائع ، تدركوا ان مفهوم البروليتاريا مفهوم عام وعالمي حين يتطابق مع الشروط المادية ، مع الشروط التاريخية المرتجع اليها .

اما فيما يخص الاعمال الماركسية التي قيل انها انعدمت بعد عام ١٩٣٠ (١) ، فسوف أقدم الى أولئك الذين ما أمكنهم ان ينعتقوا تمام الانعتاق من أصولهم الستالينية والذين لا

---

١ ـ كان ج. غرينباس قد لاحظ في مداخلته انه لا وجود ، منذ عام ١٩٣٠ وحتى عام ١٩٧٠ ، لمؤلف نظري واحد يعادل في الاهمية مؤلفات ماركس ولينين . ـم ـ

يقرون بصحة تحليل تروتسكي ، مع ان المناقشة معهم بصدد هذا الموضوع صار لها عمر طويل ، سوف اقدم لهم هدية ، وهي عبارة عن مجموعة تصدر قريبا في ٧٥٠ صفحة وتضم كل ما كتبه تروتسكي قبل ١٩٣٣ عن النازية ، وعن هتلر ، وعن دور الوطنية ـ الاشتراكية ، وعن مصير الطبقة العاملة في المانيا وفي اوروبا . ستقرأ هذا الكتاب المؤلف من ٧٥٠ صفحة ، وستقول لي ان كان ينطوي على تحليل تاريخي ، ماركسي ، قيّم ، اكد التاريخ صحته . استطيع ان اضيف ايضا التحليل الذي قام به تروتسكي للظاهرة السوفياتية : «الثورة المغدورة» ، وهو كتاب الفه عام ١٩٣٦ . انه بالنسبة الي ، بالرغم من وجود اختلافات بيننا بصدد هذا الموضوع، تحليل اساسي وجوهري ، وحين يقدم في ايامنا هذه لشبان تشيكيين ـ اتكلم عن الحبل في بيت المشنوق ـ او لشبان بولونيين او لشبان سوفياتيين ، فانهم يتعرفون فيه بسهولة لا كل الواقع الاجتماعي لبلادهـــــم (فقد تصرم بين ١٩٣٦ و١٩٧١ بعض الزمن)، وانما سماته الاساسية، وسيتعرفونها ببالغ اليسر .

لقد طرح عليّ سؤال بصدد القومية الفلسطينية وبصدد الموقف من القومية في بلدان العالم الثالث بوجه عام (١) .

---

١ ـ سؤال وجهه الى مانديل «رفيق» عربي لم يذكر اسمه ، وقال فيه بالحرف الواحد : «لقد ميز السيد مانديل رائع التمييز قومية المضطهَدين عن قومية المضطهِدين. فما تطبيق ذلك على مستوى الصراع =

أعتقد ان ذلك بالفعل امر لا يجوز الشطط في تبسيطه . فحين نقول ان نضال شعوب العالم الثالث ، نضال الشعوب المضطهَدة في سبيل الانعتاق القومي ، هو نضال عادل ، وذلك على نقيض مسعى البلدان الامبريالية للابقاء علــى اضطهاد تلك ألاقطار ، فهذا لا يعني البتة اننا نقول ان جميع التظاهرات الايديولوجية والسياسية لهذا النضال تقدمية .

لنأخذ مثالا تاريخيا سبق ذكره : نضال الشعب الصيني ضد الامبريالية اليابانية . فحتى بقيادة تشانغ كاي شيك كان هذا النضال عادلا . ولكن هذا لا يحول تشانغ كاي شيك من جلاد رجعي وشبه فاشي ألى تقدمي ذي نزعة اشتراكية، او ذي نزعة شيوعية ، او ديموقراطي .

ينبغي ان نميز بين الدلالة التاريخيــة ، الموضوعية ، لنضال جماهيري وبين شتى التيارات الايديولوجيةوالسياسية والنظرية التي تتوزع هذا المجتمع وهذا الشعب المضطهَد . وهنا يجب ان اقول ــ مستعيدا أطروحة لينين المشهورة عن المسألة القومية والكولونيالية ، التي تم اقرارها في المؤتمر الثاني **للاممية الشيوعية** ــ انه بقدر ما ان النضال التحرري للشعب الفلسطيني ، للشعب العربي ، نضال عادل وتقدمي، بقدر ما ان فكرة جامعة الاسلام وجامعة العروبة (١) وكل

= الاسرائيلي ــ الفلسطيني ، وكيف يحدد القومية الفلسطينية ، وما طبيعة التأييد الذي ينبغي ان تلقاه لدى الثوريين في العالم ؟» ــم ــ

١ ــ لماذا ؟ كنا نود لو أفصح ماندبل عن فكرته بمزيد من الوضوح ، =

اتجاه مماثل ذي طبيعة عنصرية ليس اتجاها تقدميا .

ينبغي التمييز بين النضال الجماهيري ، بين القوة الموضوعية الاجتماعية ، وبين ما يدور في رؤوس الناس .

لكنني ، انا ، لن استخلص من ذلك انه ما دام الناس يحملون افكارا رجعية في رؤوسهم فان نضالهم لا يعود عادلا . انه تمييز بالغ الاهمية ! انني اعطي الاولوية للواقع الاجتماعي ، للوجود المادي ، لا للافكار . ولا سبيل لتغيير هذه الافكار الا اذا غيرنا الواقع الاجتماعي . وليس في المستطاع البتة ان ننتظر ، كي نغير هذا الواقع ، ان نغير الافكار اولا، ولاسيما ان هذا التغير هو تغير أحادي الجانب.

اعود الى المثال الذي استخدمته منذ قليل : ليرم من كان بلا خطيئة الحجر الاول ! من هم اذن اولئك الذين يعيبون على العرب كونهم عنصريين وقوميين واسلاميي النزعة ؟ هل هم أطهار من كل عيب ؟ أليسوا هم قوميين بصورة من الصور ، ولا عنصريين بشكل من الاشكال؟ انظروا

= وعلى الاخص بمزيد من التعليل ؟ ما الذي يجعل فكرة جامعة العروبة Panarabisme فكرة رجعية وذات طبيعة عنصرية ؟ ان فكرة جامعة العروبة هي بالتعريف ، نقلا عن «لاروس» على سبيل المثال ، «مذهب سياسي ينادي باتحاد جميع البلدان التي تنطق بالعربية وتنتمي الى الحضارة العربية» . فأين الوجه الرجعي والعنصري في ذلك ؟ مؤكد اذن ان لفكرة مانديل جامعة العروبة مضمونا اخر عند مانديل، شبيها على سبيل المثال بمضمون فكرة الجامعة السلافية ، وهو ما كنا نود لو أفصح عنه . ــ م ــ

اذن كيف يطبقون مبدأ المساواة بين جميع الاشخاص بغض النظر عن اصلهم الاثني او العرقي ، كما هي الحال في داخل اسرائيل على سبيل المثال ! انهم يطبقون مبدأ المساواة هذا الى درجة ان اليهودي هو وحده المسموح له بأن يهاجر الى اسرائيل ، لا العربي ! والحق انه لا يجوز ، كما قال غوريلي، ان نطلب الى المضطهَدين ، ما دمنا في عالم هو عالم فاسدين وأشرار ، عالم يقوم منذ آلاف السنين على الاضطهـــــاد والاستغلال ، ان يكونوا أطهارا قبل ان يكون لهم حق التحرر، من دون ان نطرح السؤال على مضطهديهم اولا .

لهذا اقول : ينبغي النضال والكفاح ايديولوجيا داخل المعسكر الثوري ضد تأثير الايديولوجيات الرجعية ، لكن لا يجوز التذرع بوجود هذه الايديولوجيات الرجعية لرفـض تقديم الدعم ، المشروع تماما من وجهة النظر الماركسية ، للنضال التحرري لشعب يعاني من أضطهاد سافر . وكما سبق ان قال مكسيم رودنسون ــ وأنا أوافقه هنا تماما ــ ان ثمة عالما بأسره من الفوارق بين اضطهاد فعلي وبالوقائع وبين «اضطهاد» لا وجود لهالا في الافكار، «اضطهاد» ايديولوجي. وهذا يعيدنا الى الفارق بين فضح كل من هيغل وماركس للاستعباد ولاستغلال الانسان للانسان . فقد كان هيغل يقول ان العبد يمكن ان يكون متفوقا على سيده ايديولوجياً وأخلاقيا ، وبفضل هذا التفوق يغدو تحرره امرا محققا . وقد رد ماركس : لندع «التحرر» في العقول لمن يكتفـــون بالعقل ، ولنتكلم قليلا عن التحرر في ألوقائع ، عن التحرر المادي ، عن التحرر الفعلي .

اننا لا نستطيع ان نضع في كيس واحد الاضطهاد الفعلي الذي يقاسي منه الشعب الفلسطيني والخوف من احتمال المقاساة من الاضطهاد في المستقبل ، وهو الخوف الذي يحرك فعلا الجماهير العبرية في دولة اسرائيل . انني لا أماري البتة في ان هذا الخوف محرك قوي ، لكني اقول ان ثمة عالما من الفوارق بين هذا الخوف الذي يخص المستقبل وبين أولئك الذين يثورون على الواقع الملموس ، وعدم ادراك عالم الفوارق ذلك يعني مجافاة تامة للواقع وتجاهلا للصراعات الفعلية الدائرة رحاها الان .

الخلاصة انني اذ أميز بين قومية المضطهِدين وقومية المضطهَدين ، فليس ذلك بالبداهة من دخل البتة بنوعية الامم ، اذ ان الامة عينها قد تكون **مضطهِدة في مجال** ومضطهَدة في مجال آخر . ثمة أمثلة كثيرة من هذا القبيل: ففرنسا أمة مضطهِدين في افريقيا ، لكن قومية الناطقين بالفرنسية في كندا قومية مضطهَدة ، وهذه حقيقة ظاهرة يسلم بها الجميع في كندا اليوم ، بمن فيهم الكنديون الانكليز .

كذلك اذا كان يهود اسرائيل مضطهِدين للعرب الفلسطينيين ، فان **يهود الاتحاد السوفياتي مضطهَدون** ، وهذا ايضا ظاهر للعيان (١) . ومن الواجب تطبيق تلك

---

١ ـ يبدو لنا ان المثال الذي يسوقه ماندبل هنا هو في غير محله : ففرنسيو فرنسا والناطقون بالفرنسية في كندا لا يؤلفون امة واحدة ، =

المبادىء تطبيقا منطقيا متماسكا ، من دون اي تنازلات ، ايا كان نوعها . فبقدر ما أعاضد النضـــال التحرري للشعب الفلسطيني ، أعاضد بالقدر نفسه حركة تحرر وانعتـــاق الجماهير اليهودية في الاتحاد السوفياتي ضد نظام اضطهادي هو بلا جدال نظام يدوس بالاقـــدام الحريات القوميـــة والاستقلال الذاتي القومي (١) .

وبالاساس ، ليس الشعب اليهودي هو وحده الـذي يعاني من ذلك ــ وهذا ، بالاساس أيضا ، مأخذ يمكننا ان نأخذه ، وقد أخذه صديقي ناتان فاينشتوك بحق وصواب، على الصهيونيين الذين «ثارت ثائرتهم» في بروكسيل على

= مثلما لا يؤلف اليهود الاسرائيليون واليهود السوفياتيون امة واحدة. صحيح ان هناك نوعا من رابطة (اللغة) بين فرنسا وبين الكنديين الناطقين بالفرنسية ، وصحيح ايضا ان هناك نوعا من رابطة (الدين) بين اليهود السوفياتيين واليهود الاسرائيليين ، لكن هذه الرابطة لا ترتقي الـى مصاف القومية او الامة الواحدة . ــم ــ

١ ــ بالرغم من ان «بلا جدال» هذه تستأهل هي نفسها الجدال (اذ أن المسألة القومية في الاتحاد السوفياتي وجدت حلا افضل نسبيا من ذاك الذي وجدته في العديد من الاقطار الاخرى) ، فاننا لا نستطيع ان نضع علامة مساواة بين الاضطهاد القومي المطلق الذي يتهدد الجماهـــير الفلسطينية في وجودها بالذات وبين بعض اشكال الضغط او حتى القمع الذي يرى مانديل ان الجماهير اليهوديـــة تعاني منه في الاتحـــاد السوفياتي . ــم ــ

الاضطهاد الذي تقاسي منه القومية اليهودية في الاتحـــاد السوفياتي . فهم ينسون ان الاضطهاد لا يطال اليهـــود فحسب ، وانما جملة من القوميات ، ومن الواجب النضال ضد هذا الاضطهاد القومي المتعدد الاشكال وتفهم جذوره في النظام السياسي للبيروقراطية السوفياتية .

ان ما يصدم لدى الصهيونيين هو انهم يكررون للمرة العاشرة في التاريخ قاعدة الوزنين والمكيالين ، وانهـــم يطالبون لانفسهم بحقوق ، هم على غير استعداد لمنحهـــا للآخرين .

ان وجهة نظري مختلفة بصدد هذا الموضوع . انـــي اقول للفلسطينيين واقول للعرب ــ وقد قلنا ذلك مـــن البداية واعطانا التاريخ الحق ــ : «اذا نظرتم الى النضال المناهض للامبريالية والى الكفاح ضد الظاهرة الاستعمارية للصهيونية من وجهة نظر **قوموية** صرف ، واذا تحالفتم لهذا السبب مع قوى رجعية في أقطار عربية اخرى ، فستدفعون بأنفسكم الى مأزق! انكم لن تجنوا فائدة منذلك ، لا سياسيا ولا عسكريا ، ولا اجتماعيا ، ولا على اي مستوى .

«ان الامكانية الوحيدة المتاحة لكم هي ان تضطلعوا الى النهاية بكل الدينامية التحررية لتلـك الحركة المعاديـــة للاستعمار ، التي ليست هي دينامية تحرر قومي فحسب، بل اجتماعي ايضا ، وأن تصيروا بحزم وتصميم ماركسيين ــ لينينيين ، ماركسيين ثوريين ، وأن تقودوا على الوجـه الصحيح ثورة عربية في جميع الاقطار العربية ، وأن تجمعوا القوة الجبارة للعمال والفلاحين الفقراء من شعب من ١٢٠

مليون نسمة ، وهي القوة الضاربة الوحيدة التي يسعها ان تنزل هزيمة بالامبريالية في تلك المنطقة من الشرق الاوسط.

«أما بقوى القومية الفلسطينية الصغرى وحدها ــ قومية صغرى بالنسبة الى مجموع الشعب العربي ــ فلن تفلحوا في الوصول الى اهدافكم» (١) .

أعتقد ان أحداث الاشهر الاخيرة قد دلت على ان هذا التحذير الذي كنا أشرنا به على الرفاق العـــرب لا يجانب الواقع . وهناك تيارات ثورية عربية متزايدة باستمـــرار تستخلص النتيجة نفسها وتسير في الاتجاه ذاته .

لم يتسن لي الوقت للاجابة على جملة من اسئلة ترتد جميعها في خاتمة المطاف الى معضلة واحدة : الاختلاف الظاهري في المصالح المادية بين بروليتاريـــا المتروبولات الامبريالية وبروليتاريا (الجماهير المستغلة بوجه عـــام) البلدان المستعمَرة وشبه المستعمرة . هذا التعارض بين المصالح واقعي وفعلي فيما يتعلق بالمستعمرات الاستيطانية، وذلك بقدر ما يؤدي التحرر الكامل للشعـوب المستعمَرة فعليا الى تسوية بين مستوى حياة من كانوا مـــن اصحاب الامتيازات بالامس وبين مستوى حياة المحرومين . لكـــن باستثناء هذه الاقلية الزهيدة من الجنس البشري ــ اقل من

---

١ ــ هذا الموقف «القومي» ، المناهض للقطرية ، من جانب مانديل ، جدير بالتقدير حقا ، وجدير بأن يحتذى من قبل بعض «اليساريين» العرب . ــم ــ

١ بالمئة من البروليتاريا العالمية ـ لا وجود لذلك التعارض في المصالح المادية حتى حيثما يظهر للعيان ، لانه انما يعكس وعيا **زائفا** ، عدم وعي للمصالح الفعلية ، اي تأثيرا شـــالا تمارسه ايديولوجيا الطبقة المعادية .

لنأخذ وجهين من هذه المعضلة .

هل صحيح ان فقدان المستعمرات يؤدي بالضرورة الى انخفاض مستوى حياة الشغيلة ؟ أن التجربة القريبة العهد للبلدان الواطئة ، ولبلجيكا بعد عام ١٩٦٠ ، ولفرنســـا وبريطانيا العظمى ، الخ ، تسمح بالاجابة سلبا على ذلـــك السؤال . انني لا أماري في ان الارباح الاستعمارية الفائضة يمكن ان تكون مصادر لمنافع ومزايا يقدمهـــا الرأسمال الامبريالي الى بروليتاريي المتروبولات . لكن نسبة هـــذه الارباح الاستعمارية الفائضة ضمن مجمل الارباح الاحتكارية الفائضة قد تقلصت تقلصا شديدا في ايامنا هذه ، لدرجة بات من الممكن معها التعويض عنها بأرباح فائضة اخـــرى تجنيها الاحتكارات ، وبخاصة في الحقل التكنولوجي .

هل صحيح ان التحرر الكامل لـ «العالـــم الثالث» سيلحق الضرر ، عن طريق الغـــاء التبادل اللامتكافىء ، بالمصالح المادية لعمال المتروبولات ؟ في وسعنا الشك فـــي صحة هذه الاطروحة ، حتى لو قبلنا بالفرضية القائلة ان «مصالح» هؤلاء العمال تنحصر بزيادة الاجور **في اطار النظام الرأسمالي** . لكن الاستنتاج يفرض نفسه من تلقاء نفســـه بمجرد ان ننفض يدنا من هذه الفرضية المحالة .

فبقدر ما تقتضي مصلحة العمال المتروبوليون الاطاحة

بالنظام الرأسمالي في بلدانهم ، لا الابقاء عليه ، فان التحرر الكامل لـ «العالم الثالث» يضعف عدوهم رقم واحد ، اي بورجوازيتهم الامبريالية ، ويسهم بالتالي موضوعيا في انعتاقهم . تلكم هي قاعدة الاممية البروليتارية : وحدة المصالح التاريخية ، والكفاح ضد عدو واحد .

اما حين نتخلى عن هذه القاعدة المبدئية ، لنضيع في متاهات «الظواهر المباشرة» ، فمن الممكن ان نتذرع ايضا بأن هناك ، داخل كل قطر متروبولي ، تعارضا بين «المصلحة المادية» للعمال المختصين و«المصلحة المادية» للعمال غير المختصين (ف «اللامختصون» بسعيهم الى دخول سوق «المختصين» يهددون بتخفيض الاجور) ، مثلما ان هناك تعارضا بين المصلحة المادية للعمال العاملين وبين مصلحة العمال العاطلين عن العمل ، بين مصلحة الراشدين ومصلحة الشبان ، الخ . ففي مثل هذه الاحوال تغدو «المصلحة المادية» مرادفة لـ «المزاحمة بين العمال» ، اي لقصر النظر . وفي هذا انكار لا للاسس المادية للاممية فحسب، بل لاسس الصراع الطبقي بالذات .

ان الوعي الطبقي يبدأ يوم يدرك المرء ان المصلحة المادية، حين ينظر الى ابعد من انفه ، تقتضي العمل **المتضامن** من جانب جميع البروليتاريين ضد عدو واحد فائق القوة . يبدأ **بتجاوز** الفوارق الفئوية والمهنية بين العمال ، لا باسم «مثل اعلى» مجرد ، وانما بالضبط باسم المصلحة المادية **الطبقية** (التي تتعدى المصلحة الفئوية او المهنية أو القطاعية او الاثنية الخ) .

ان المصلحة الطبقية **المشتركة** لبروليتاريي المستعمرات والمتروبولات ضد البورجوازية الامبريالية ليست موضع شك . وان قسما كبيرا من شغيلة المتروبولات لا يعي ذلك دائما ، لوقوعه تحت تأثير ايديولوجيات الطبقة السائدة . لكن مهمة الماركسيين ليست لا التكيف مع هذه التأثيرات ، ولا على وجه الخصوص ايجاد «تبرير مادي» لها ، وانما مهمتهم محاربتها .

هنري لوفيفر

الطبقة والأمة
منذ « البيان الشيوعي »

● لم يفصل ماركس قط ما هو اقتصادي وسوسيولوجي عما هو سياسي ، كما لم يفصل هذه المقولات الثلاث عما هو تاريخي يغلفها . ودراسة واقع الطبقات ، خارج نطاق تظاهراته السياسية ، تبقى دراسة مجردة . فالطبقة لا تصير طبقة الا بدخولها حلبة العمل السياسي . نعني بذلك ان يصوغ رجال يمثلونها بقدر او بآخر مصالحها ، ويرسموا

استراتيجية لها ، ويناضلوا لانتزاع الاعتراف بها ولفرض هيمنتها . وبدون ذلك لا تكون طبقة الا بالقوة والفرض . كذلك توجد الامة كمونا بوجود قاعدة اقتصادية وســـوق قومية ، او بوجود لغة وثقافة (وهمـــا مهددتان اصـــلا بالاضمحلال اذا لم تتوفر لهما قاعدة اقتصادية ـ اجتماعية). بيد انها لا ترقى الى مستوى الوجود التاريخي الا سياسيا .

ويفترض الوجود التاريخي والسياسي وجــود تصور لممارسة اجمالية يشمل جميع المستويات (الموضوعي والذاتي، المادي والثقافي ، الاقتصادي والاجتماعي ، الخ) ويحاول على جميع هذه المستويات أن يجد حلولا للتناقضات باقتراحــه حلولا للمشكلات الخاصة والعامة. وتقدم الوقائع الاقتصادية من حيث انها شروط وسائل للعمل ، وتسمح برســـــم استراتيجيات ، وتحدد امكانيات وكذلك حدودا لرجـــال العمل والدولة من أمراء ووزراء وزعماء وقادة طبقات وشرائح من الطبقات الاجتماعية .

● كان ماركس ، في العام الذي كتب فيه «البيـــان الشيوعي» (١٨٤٨) ، يسلم بلا لبس بالنهايـــــة القريبة ، الوشيكة ، للامم والقوميات . و«البيان» يسبح في خضم شمولية ذلك العصر الفلسفية ، وأن تناولها تناولا نقديا ومن منظور الثورة البروليتارية .. فالبروليتاريون ليس لهم وطن: «يا بروليتاريي جميع الاقطار ، اتحدوا !» . أما الامـــة والقومية والنزعة القومية فعبارة عن بنى فوقية صارت منذ ذلك الزمن بحكم البالية ، والقاعدة التي تقوم عليها قـــد تخطتها السوق العالمية للاسواق القومية . ان البروليتاريا

تنفي الامة ، جذريا ، عمليا ، مثلما انها النفـــي الموجب البورجوازية والرأسمالية . وحتى تتهيأ شروط الممارسة الجديدة وتنضج ، ينبغي ويكفي ان يتحد البروليتاريون من خلال تخطي الامة . قال ماركس في عام ١٨٤٧ في مهرجان خطابي أقيم تخليدا لذكرى انتفاضة ١٨٣٠ البولونية : «ان اتحاد الامم وتآخيها جملة تشهرها جميع الاحزاب اليوم ، ولاسيما دعاة التبادل الحر . لكن حتى تتمكن الشعوب من الاتحاد فعلا ، فلا بد ان تكون لها مصلحة مشتركة . وحتى يمكن لمصلحتها ان تكون مشتركة ، فلا بد من الغاء علاقات الملكية الحالية ، وذلك ما دامت علاقات الملكية الحالية هي التي تحدد الاستغلال المتبادل فيما بين الشعوب . ان الغاء علاقات الملكية الحالية لا يهم سوى الطبقة العاملة . وهي وحدها التي تملك وسائل الغائها . وانتصار البروليتاريا على البورجوازية هو ايضا انتصار على النزاعات القوميـة والصناعية» . والموقف نفسه يتكرر ، بكل دقة ، فـــي «البيان» : «الغوا استغلال الانسان للانسان فتلغوا استغلال أمة لاخرى . ويوم يسقط تطاحن الطبقات داخـل الامة ، يسقط ايضا العداء فيما بين الامم» . وفي الحقبة نفسها (١٨٤٨) صرح ماركس في «خطابه عن التبادل الحر» : «لقد بينا أي نوع من الاخاء يقيمه التبادل الحر بين شتى الطبقات في أمة من الامم . ولن يكون الاخاء الذي سيقيمه التبادل الحر بين مختلف الامم اكثر اخويـة بكثير . وتسميـــة الاستغلال في شكله الكوسموبولوتي باسم الاخاء الكوني فكرة لا يمكن ان تولد الا في قلب البورجوازي ...» .

هكذا كان ماركس يسعى بوجه خاص الى القضاء على الاوهام التي يمكن ان تولدها الليبيرالية البورجوازية ، وعقلانيتها المحدودة ، واخلاقيتها التي تجعل الناس يشيحون بوجوههم بحياء عن واقع الطبقات ، في تلك السنة الثورية التي ظهر فيها وضع ثوري في جميع بلدان اوروبا المتقدمة .

ان حل المشكلة القومية ، بقدر ما يمكن ان يكون هناك حل ، يرتبط في الفكر الماركسي ، في تلك الحقبة ، بنظرية عامة هي نظرية **التجاوز** . ونظرية التجاوز **Aufhe Bung** آتية من الفلسفة ، لكن كارل ماركس يفصلها عن كل مذهبة وعن كل فرض فلسفي مسبق ، بربطه اياها ببيان الامكانيات الجديدة المتولدة عن الطبقة العاملة . ففي كل مضمار وفي كل قطاع من الممارسة ، وعلى جميع مستويات الواقع ، يمكن لما يسد الطريق ويحجب الافق ان يزول ويتلاشى . وان قفزة الى الامام لقمينة ، كما يؤكد ماركس ، ان تتغلب عليه وتذلله . هذه القفزة الى الامام هي الثورة الشاملة ، الهدامة والبناءة جذريا ، التي ستنجزها الطبقة العاملة . وهي فعل تاريخي ممكن وضروري ؛ بل هي قطيعة مطلقة في الزمان التاريخي : الغاء جميع أشكال الاستلاب .

بيد ان التحليل يواجه خصوصيات ، وسيرورة التجاوز تتلبس كيفيات خاصة مختلفة . الدين؟ ان التجاوز سيلغيه. الفلسفة ؟ ان التجاوز سيحققها ، اي انه سيدخل في الممارسة ، من خلال النقد والتكميل ، الوجه المثالي للانسان الذي رسمه الفلاسفة والذي ابقت عليه الفلسفة في حالة

التجريد المثالي . الدولة ؟ ان التجاوز سيقودها الى التلاشي والفناء . الاقتصاد السياسي ؟ ان الوفرة وتنظيمها سيحلان محل علم اللاوفرة هذا . اما الحقوق والاخلاق فانهـــا ستتلاشى وتضمحل امام تجديد العادة كأساس للحيـــاة الاجتماعية ، ولكن على درجة اعلى بما لا يقارن . الامة ؟ انها ستزول بزوال الدولة ، وبزوال السوق القومية المباحـــة المزاحمة الحرة ، وبزوال الندرة والحقوق .

لقد كان على ماركس، بمجرد ان تصور برنامجا سياسيا، بمجرد أن كتب «البيان» ، أن يعطي شكلا أكثر عيانية واكثر وضوحا ودقة لتلك الاطروحات العامة ، وعلى الاخـــص الاطروحة المتعلقة بالامة . وبالفعل ، انما في اطار قومي فقط يمكن للطبقة العاملة ان تباشر بتحويل المجتمع الرأسمالي . فحيثما تحي يتوجب عليها ان تكافـــح وتنتصر . وعليها ، باديء ذي بدء ، أن تستولي على الدولة ، التي هي قومية بالضرورة . البروليتاريا ، بتوكيدها ذاتها سياسيا، ستصبح الطبقة السائدة في الامة . «ان نضال البروليتاريا ضـــد البورجوازية ، بالرغم من انه لم يعد في جوهره نضالا قوميا، يتخذ شكل النضال القومي . فغني عن البيان ان بروليتاريا كل قطر ملزمة بأن تتخلص اولا من بورجوازيتها» («البيان») . يتصور ماركس اذن حركة ثورية متصلة (هذا اذا لم نشأ ان نستعمل هنا التعبير الذي أخذ فيمـــا بعد معنى بالـــغ الخصوصية : «الثورة الدائمة») . ان القفزة الفاصلة الى الامام ستقيم اركان دكتاتورية البروليتاريا ؛ لكن هـــذا التعيين لا ينفصل عن عدة تعيينات اخرى . فدكتاتوريـــة

البروليتاريا تؤلف هي الاخرى كلية ذات مظاهر ومراحل متعددة . وهي تتلاقى مع توسيع نطاق الديموقراطية الليبرالية والمجردة .

ان البروليتاريا لا وجود بالنسبة اليها لنضال اجتماعي لا يبلغ حقيقته السياسية ؛ ولا لمضمون اجتماعي لا يتخذ شكله السياسي ؛ ولا لنشاط اقتصادي لا يستطيع ولا يتوجب عليه ان يرتسم على مستوى الدولة . فالبروليتاريا تستولي على الدولة القومية . وهذا الهدف يحدد ماهية صراع الطبقات . فالطبقة العاملة ستحطم الدولة القومية ، وستستبدلها بدولة مكوّنة بحسب حاجاتها الاجتماعية وبحسب حاجات حلفائها السياسيين . ومثل هذه الدولة لا يمكن الا ان تضمحل وتفنى . أنها منذورة للفناء ، وتبدأ فورا بالفناء كما سيحدد لينين في صفحة مشهورة من «الدولة والثورة» . ان عليها ان تنحل وتذوب في الممارسة المرفوعة هي نفسها الى مستوى التنظيم العقلاني ، المتلاحم ، لجميع مظاهر الحياة الاجتماعية ، من دون ان تكون هناك حاجة الى وثاق خارجي او الى قوة اكراهية عليا. ودكتاتورية البروليتاريا ، التي تتطابق مع الديموقراطية المعمقة ، تتطابق ايضا في الهوية ، عبر حركة جدلية ، مع بداية السيرورة المفضية بالدولة الى الفناء .

مفروض اذن بالتنظيم الاممي للطبقة العاملة ان يقوم بعبء تلك الاعباء المتعددة ، الموحدة في كل متناسق متلاحم: توجيه النشاط لدى الشعوب المختلفة ، تنسيقه ، تأمين النمو الاقتصادي والتطور الاجتماعي ، تذليل الحدود

والعقبات المتأتية من المرحلة البورجوازية، تجاوز القوميات. **والانتقال** نحو الغاء الطبقات ، وكذلك نحو الغاء العلاقـــات الانتاجية التي تستوجبها هذه الطبقات والعلاقات الاجتماعية المناظـــرة لمثل تلك العلاقات الانتاجية ، هـــذا الانتقال يتكشف عن انه بالغ التعقيد . والتنظيم الاممي هو الـــذي سيتكفل بعبئه . وهو الذي يأخذ على عاتقه من خـــلال الممارسة التجاوز النظـــري . ولهذا التجاوز قاعدتـــه الاقتصادية : السوق العالمية . ان البورجوازية تنشىء هذه السوق وتغطس بالتالي في تناقض غير قابل للحل بالنسبة اليها بين السوق العالمية وبين الاسواق القومية التي كانت قد اسستها في عهد نظام المزاحمة والتي تمسك بمقاليدها وتحاول الهيمنة عليها . والبروليتاريا هي وحدها التـــي تستطيع ان تحل هذا التناقض ؛ هي وحدها التي تستطيع ان تفوض ممثليها بالمقدرة على انشاء استراتيجية على تلك القاعدة ؛ هي وحدها التي تستطيع ان تحطم الحـــدود والعقبات (التي من بينها الامم) المعيقة للتطـور الاقتصادي والاجتماعي على الصعيد العالمي .

وقد اضطر ماركس ، فيما بعد ، الى ان يعيد النظر بمزيد من التدقيق في الخصوصيات القومية ، اي فـــي الشروط العينية لصراع الطبقات : الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية . ويخيل الينا انه تصور ثـــلاث امكانيات سياسية ، اي ثلاث استراتيجيات الثورة المتصلة:

أ ـ استراتيجية الاستيـــلاء على السلطة بطريـــق الديموقراطية السياسية، اي بطريق الاقتراع العام والغالبية

(الغالبية البروليتارية على اساس مقدرة البروليتاريا على كسب حلفاء سياسيين) . وهذا الفتح الديموقراطي يترافق بتوسيع الديموقراطية وتعميقها . وقد ارتأى ماركس ان مثل هذه السيرورة ممكنة في البلدان التي لم تتوطد فيها دعائم الدولة من حيث انها دولة تتعارض في بنيتها مع تعميق الديموقراطية . وذلكم هو شأن انكلترا في منتصف القرن التاسع عشر (انظر بوجه خاص مقالا لماركس ظهر في «نيويورك تريبيون» في آب ١٨٥٢) (١) .

ب ــ **طريق الاصلاحية** الاقتصادية والاجتماعية ، اي طريق التحويل التدريجي للمجتمع انطلاقا من القاعدة ووصولا الى القمة ، وليس بالبدء بالقمة السياسية . وينشأ التحول الاجتماعي في هذه الحال عن تراكم الاصلاحات . وهذا في الاقطار التي يسير فيها التطور الصناعي على قدم وساق حيث لا تستطيع الدولة ان تنصب العراقيل في وجه تلك الحركة التي توجهها الطبقة العاملة . وذلكم هو شأن المانيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بالرغم من ان

---

١ ــ يشير لوفيفر هنا الى فقرة محددة في المقال المذكور وهي : «ان الاقتراع العام والسلطة السياسية مترادفان بالنسبة الى الطبقة العاملة الانكليزية. فالبروليتاريون يؤلفون الغالبية الكبرى من السكان. والحصول على الاقتراع العام في انكلترا سيعني تقدما نحو الاشتراكية اكثر مما يمكن ان يعنيه اي اجراء مسمى باشتراكي في البر الاوروبي . اذ ستكون نتيجته المحتمة الهيمنة السياسية للطبقة العاملة» . ــم ــ

هذه الامكانية تتضاءل باستمرار بفعل ما يعمله بسمارك ، وبفعل استراتيجيته الرامية الى دمج البروليتاريا بالدولة الاقطاعية ـ البورجوازية ، وبفعل نزعته الى الاصلاح «من الاعلى» (انظر نصوص ماركس بدءاً من «الثورة والثـــورة المضادة في المانيا» ، ١٨٥١ ، الى نقد ماركس وانجلز لبرامج الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي الالماني ابتداء من عـــام ١٨٧٥ وحتى وفاة كل منهما) .

ج ـ **طريق الثورة العنيفة** في الامم التي شادت فيها الطبقة (او الطبقات) السائدة جهاز دولة عسكريا وبيروقراطيا متينا ، ورفعته فوق المجتمع لتسد به الطريـــق (فرنسا ، روسيا . انظر بوجه خاص «١٨ برومير لوي بونابـــرت» والنصوص عن عامية باريس) .

ان الانتقال نحو الاشتراكية يتغير اذن تبعا للواقـــع القومي وللاطر التاريخية ، اي الدَولية (١) . ولئن كنـــا نعتقد بأن لدى ماركس تعددا في وجهات النظر وتنوعا في الاستراتيجيات ، فاننا نرى ان لهذه الاستراتيجيات صفة مشتركة ، على كل حال . فالواقع القومي له وجوده النسبي، لا المطلق . انه رهن بالظروف . وماركس ما عاد ينكره او ينفيه ، بيد انه يربطه ربطا صريحا بمقتضيات الحركة في مجموعها وتمامها . فالهدف واحد مهما تكن الاستراتيجية: تأمين غلبة الطبقة العاملة وهيمنتها في وعلى الواقع القومي.

---

١ ـ نسبة الى الدوَلة لا الى الدول .   ـم ـ

اي ان المطلوب هو الانتقال من مرحلة تكون فيها الاطـــر الاجتماعية للامة على قدر كبير من الاهمية الى مرحلـــة تتجاوزها فيها الحركة .

ان التحليل السياسي العيني ينصب على العلاقـــات الظرفية بين الطبقات (الفلاحية ، المتوسطة ، أقسام مـــن البورجوازية) في الاطار البنيـــوي للتناقض القطبــــي «البروليتاريا ـ البورجوازية» . ويتبدل هذا التحليل العيني بحسب الامم (انكلترا ، فرنسا ، المانيا ، الخ) ، وكذلـــك بحسب المرحلة التاريخية بالنسبة الى كل أمة على خدة . ونمط الانتاج ، اي الراسمالية ، هو الذي يفسر هـــذه العلاقات المتقلبة : كوكبة الطبقات ، في الامم المختلفة ، بتاريخها المختلف . قال ماركس في عام ١٨٤٥ ، عن فرنسا على سبيل المثال ، ان لها من وجهة النظر السياسية أسلوبا دراميا ، في حين ان للالمان أسلوبا ملحميا (انظر : «مساهمة في نقد فلسفة الحقوق عند هيغل») . وهـــذه الاساليب السياسية سمات تميز الثقافات القومية . ومرد ذلك ان صراعات الطبقات في فرنسا تبتكر ، لاسباب متعددة لكن عميقة ، أعمالا وأفعالا وتندفع الى اقصى مداها ؛ بينما يصب الالمان اهتمامهم على الاعمال المنجزة من قبل غيرهـــم فيستلهمونها ويقلدونها .

● بالرغم من اننا نجد لدى ماركس وانجلز تحليلات عديدة للوقائع القومية ، وللظروف وللعلاقات بين الطبقات داخل الامم ، فاننا لا نلقى لديهما نظرية للواقع القومي او للمسائل القومية .

بيد انه يسعنا مع ذلك التوكيد بأنهما ناضلا على جبهتين : ضد «اليساروية» التي كانت تتحاشى المشكلات القومية ، وضد أولئك الذين كانوا يكرسون «الضيق القومي» ، فينتهي بهم المطاف الى الشوفينية ويعلن كل منهم ان أمته هي المصطفاة او هي القدوة . وما يثير الاهتمام ، بعد مرور قرن من الزمن ، ان نلاحظ ان البرودونيين كانوا ينظرون الى المشكلات القومية على انها مشكلات بالية قد عفا عليها الزمن . فالمجتمع ينحل في نظرهم ، بالفعل ، الى جماعات صغيرة . وكانوا يحترسون اشد الاحتراس من الدولة والمركزة الدَولية الى حد أصدروا معه سلفا قرارا بحلهما . وبذلك التقوا مع التيار الفوضوي . وبالمقابل كان اللاساليون يحبسون أنفسهم في النزعة القومية الالمانية بفعل احترامهم للدولة وإجلالهم لها ، وهي صنمية ورثوها مباشرة من هيغل . والحال اننا نعلم ان اللاساليين كانوا يتخذون على الصعيد الاقتصادي مواقف متطرفة (القانون الحديدي) . وهذا بينما تحول بعض البرودونيين بحذر نحو الاصلاحية .

ومن مفارقات الامور ان بعض التيارات الاصلاحية ذات النفوذ والمكانة في المرحلة المدروسة (من ١٨٤٨ الى الاممية الثانية) وقفت موقف المناهض للواقع القومي والنزعة القومية ، بينما جنحت نزعة يساروية متطرفة الى القبول بالامة ، وبالتالي بالدولة، كإطار اساسي للمشكلة السياسية.

● أما في مرحلة الاممية الثانية فقد ظهر الى حيز الوجود جناح «يساروي» للحركة العاملة. وقد انتظر موجهو

هذا الجناح من المنظِّرين انهيار الرأسمالية . وستمتد هذه الفاجعة في رأيهم الى جميع البلدان الصناعية ، حين يغدو تراكم الرأسمال مستحيلا وتنقلب الازمة الاقتصادية الدورية الى ازمة شاملة ونهائية . لقد حافظ اذن هؤلاء المنظِّرون على فكرة ماركس وانجلز البدئية : تواقت الثورة في جميع الاقطار التي فيها بروليتاريا . وسوف تتبع حركة الطبقة العاملة عفويا مسار الازمة . ومن المناسب مراعاة هــــذه العفوية وإفساح المجال لها لتجد طريقها بنفسها . ومن هنا كان مطلب الديموقراطية . وسوف تتلاشى الاطر القومية تحت دفع الشعوب العفوي ابان الازمة النهائية . وهــــذه صيغة ملخصة باقتضاب شديد ، وبالتالي ناقصة الصياغة ، لـ «اللوكسمبورغية» .

وفي الجناح الآخر من الحركة العاملة هب «التحريفيون» ينتسبون علنا وجهارا الى اطارهم القومي . فقد كانوا يرون فيه معطى ايجابيا لعملهم ونشاطهم . بل انهم كانوا يحترمونه ويجلونه بمثل احترامهم وإجلالهم للدولة ولجهازهــــا الذي وضعوا في خطتهم ان يتسربوا اليه ويتغلغلوا فيه ، لا ان يحطموه . وكان هؤلاء «التحريفيون» ، كما هو معروف ، يعارضون الثورة بالتطور، والتحويل الاجتماعي بالاصلاحات، والجدل الماركسي بالفلسفة القديمة . وهذا في اقطار عدة. وفي فرنسا بذل لافارغ وفايان وغيسد قصارى جهودهــم للتوفيق بين النزعة الاممية والتقاليد اليعقوبية : «لا يكف المرء عن ان يكون وطنيا بدخوله في الطريق الاممي ...» (جول غيسد) .

وقد صارع كاوتسكي اولا ، ثم لينين بخاصة ثانيا ، على جبهتين معا . فضد «التحريفية» شهرا عاليا في كل مناسبة الطابع الاممي جوهريا للحركة العاملة ، وأعلنا عن تبعية المصالح والمشكلات القومية لمجمل تلك الحركة. وضد «اليسماروية» أكدا من جديد واقعية هذه المشكلات القومية وضرورة اخذها في الحساب ، شريطة أن تخدم النشاطات السياسية المبذولة على هذا الاساس مجمل حركة الطبقة العاملة .

لكن أفكارا جديدة بزغت في كتابات لينين . فمن تحليله للمجتمع الروسي انبثقت المعالم الاولى للاطروحة القائلة ان المشكلات القومية والمشكلات الزراعية ترابط فيما بينها . فالحدود القومية قابلة للتخطي بالنسبة الى البروليتاريا منظوراً اليها بمعزل عن سائر الطبقات ؛ لكن لا بد ايضا من ان يُحسب حساب الفلاحين . وفي معترك الكفاح العام ضد الامبريالية ، وهي مرحلة جديدة من صراع الطبقات اكتشفها لينين وصاغ نظريتها ، تكتسي المسائل القومية والفلاحية اهمية متعاظمة، شأنها في ذلك شأن حق الشعوب في تقرير مصيرها (أي المسألة الكولونيالية من خلال ارتباطها بالمسألة القومية) . كذلك تتضح لديه شيئا فشيئا معالم مفهوم **التطور اللامتكافىء** ، الى ان يحتل هذا المفهوم في خاتمة المطاف مكانة الصدارة . وبمقتضاه ، جرى تصنيف الامم الى مراتب محددة بحسب درجة تصنيعها . ومن جهة اخرى ، قاوم لينين بشدة مشروع **الولايات المتحدة** الاوروبية ، وذلك بقدر ما ان البورجوازية مهيأة كطبقة ، من

خلال تخطي المصالح المحلية (القومية) ، لان تتسلم قيـــادة «الولايات المتحدة الاوروبية» ، وقادرة على ان تجد في هذه الاخيرة وسائل جديدة للعمل ضد البروليتاريين .

● جاءت الحرب العالمية الاولى بالدليل على فشـــل ايديولوجيا الحركة واستراتيجيتها . فليس المبدأ الطبقي هو الذي تحكّم بأمم اوروبا المتطورة . ولم يقيض لانصهارها من خلال عمل البروليتاريا في قومية عليا صناعية حتى أن يبدأ مجرد بداية . ومع الحرب انعتق المبدأ القومي من المبـــدأ الطبقي . وسوف تستعيد الحركة نشاطها ، ولكن في أشكال جديـــدة .

● لنلق نظرة الان على ما دار في صف الطبقات السائدة . فالبورجوازية الفرنسية توصلت ، بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، الى احتلال مواقع اليعقوبية برمتها تقريبا ، ولكن ليس من دون ان تشوهها . وكـــان «اليسار» ، على امتداد القرن التاسع عشر بأسره ، قـــد احتفظ باحتكار الوطنية الايديولوجي . وكان يتطلع ، حتى في ظل اسم «الاشتراكية» ، الى أن يكون وطنيا وأمميا في آن معا . وكان يصارع عواقب «روح كوبلنز» (١) ، اي ضد خيانة المهاجرين الارستقراطيين . وفي أواخر القرن تخلت هذه الطبقة عن الكوسموبوليتية الموروثة عن القرن الثامن

---

١ ـ مدينة المانية تجمعت فيها في عام ١٧٩٢ فصائل المهاجرين من انصار الملكية وشكلت الجيش المعروف باسم جيش كونديه . ـم ـ

عشر . وقادت مناورة ايديولوجية واسعة ، وجهها مفكرون يمينيون على العموم ، ولكن ليس جميعا ولا دوما (موراس ، باريس ، بيغي) ، البورجوازية الى الوطنية . ما اسباب هذه الحركة ؟ فلنعدد بعضها : الاستعمار ؛ المجهود المبذول لتحويل السوق القومية الى منطقة صيد محروسة للاحتكارات والرأسمال المالي الذي كان قد استحوذ منذ ذلك العهد على ميدان العمليات هذا ؛ رد الفعل الايديولوجي والسياسي ضد الامية البروليتارية ، الخ . وفي الوقت الذي راح الرأسماليون يعملون فيه على مد نشاطهم الى ما وراء حدود بلدانهم ، ويضاعفون روابطهم ونزعاتهم ، وفي الوقت الذي طفقت فيه السوق العالمية تتوسع توسعا هائلا ، بلورت البورجوازية سيطرتها وسيادتها في الايديولوجيا القوموية. فالامة واسطة عقدها وأرضها المختارة . والممارسة تفترق عن الايديولوجيا ، والتناقضات تتضاعف . وسوف يبرز للعيان ، بعد عشرات السنوات من التأخير ، احد هذه التناقضات بين الديموقراطية في الداخل والاستعمار في الخارج . والحال ان هذا التناقض ما كان يُدرك على حقيقته في ذانك المكان والزمان . فما الذي كان يحجبه عن الانظار ؟ انشاء الجمل عن عظمة الوطن ، وهي العظمة التي كان يفترض ان للمستعمَرين دورهم فيها . ثم ان بلدا كفرنسا كان يفوز ، في مجمله عمليا ، ببعض الفوائد والمكاسب من الوضع ويحظى ببعض فضالات الوليمة الاستعمارية . وبذلك كان انشاء الجمل يتضمن في آن معا ازدهار المتروبول ووحدة الامبراطورية .

هكذا تتجاوب التناقضات فيما بينها اذا نظرنا الى الوضع التاريخي في جملته. فقد كان لدى الحركة العمالية ايديولوجيا أممية النزعة ، ولكن لم يكن لديها استراتيجية فعالة أمميا ؛ ومن ثم فان أولئك الذين كانوا يعملون في الاطر القومية كانوا هم وحدهم الذين يتوصلون الى شيء من الفعالية العملية. أما البورجوازية فكانت متشبثةبايديولوجيا قوموية ؛ لكن ممثليها الاكثر فعالية كانوا يعملون في اطار ما فوق قومي ، خارج حدود الامة .

ان امة تضطهد امة اخرى لا يمكن ان تكون حرة : هذا ما ردده الماركسيون كثيرا . والدليل على ذلك يقدمه تاريخ العلاقات بين فرنسا والجزائر ، وهو تاريخ لما يُكتب بعد . ويظهر هذا التاريخ للعيان ، بوجه خاص ، تردي الجيش الفرنسي وتدهوره منذ فتح الجزائر . لكن سخرية التاريخ تأذن ايضا بالتوكيد بأن حرية معينة لامة من الامم ، وعلى الاخص ظاهرا كبيرا من حرية ، يتيحان شروطا افضل لابقاء شعوب اخرى في إسار التبعية لهذه الامة . فالاداريون يجندون وينتقون من اوساط اوسع وأرحب . وتكون حظوة الدولة المتروبولية أعظم ، ويذيع بسهولة اكبر في صفوف المستعمَرين الامل المعقود عليها . والممارسة والحياة الفرنسية ابان الحقبة المدروسة تتسمان بمزيج يبعث على الدهشة من الديموقراطية والنزعة القومية . وليس من قبيل المصادفة، فضلا عن ذلك ، أن تكون الفاشية قد عجزت عن الانتصار على الديموقراطية في الامم المحبوة ، اي الامم الامبريالية والاستعمارية الناجحة : فرنسا وانكلترا . فقد كانت

الفاشية قوموية ، وكانت القوموية مشدودة الى الفاشية ومتلاقية معها ضد الديموقراطية . لكن الديموقراطية (البورجوازية) والامة (البورجوازية) تقدمان وسائل سياسية وايديولوجية للسيطرة الاستعمارية أفضل من تلك التي تقدمها الفاشية . وفي احسن الاحوال ، تقدم الفاشية الوسائل لفتح امبراطورية استعمارية في عالم محتل أصلا . هكذا ما أمكن لصنمية الامة ، الوطيدة والنافذة في فرنسا ، أن تنتهي الى فاشية . وبديهي اننا لا نذكر هنا سوى علة واحدة بين جملة علل اخرى .

هل هناك حاجة للتنويه بأن أولئك الذين كانوا يستلهمون «المبدأ الطبقي» والاممية لم يطرحوا قط ، في فرنسا ، مشكلة المستعمرات بكامل سعتها ، ولم يشنوا قط نشاطا سياسيا في سبيل تحرير الشعوب المستعمرة ؟ لقد أبقت الحركة العاملة الفرنسية ، قبل حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ وبعد هذه الحرب ، المسألة الكولونيالية في الظل ، فلم تربطها بالمسألة القومية ، أي بحق الشعوب في تقرير مصائرها بنفسها . وقد يحتج بعضهم بحملة ١٩٢٥ الكبرى التي شنها الشيوعيون ضد حرب المغرب ، وكذلك بالاهتمام الذي وجهه الحزب الشيوعي منذ عام ١٩٣٦ الى «الامة الجزائرية قيد التكوين» . ومن السهل أن نرد بأن حملة ١٩٢٥ كانت معادية للفاشية اكثر من كونها معادية للاستعمار . والحق ان مناهضة الاستعمار لم تفلح في التغلغل عميقا في الحركة العاملة الفرنسية ، في التيار الشيوعي ، ولا في التيار الاشتراكي ـ الديموقراطي . والتباس صيغة كصيغة «الامة

الجزائرية قيد التكوين» الذي كان يسمح اولا للقـــادة السياسيين الفرنسيين ان ينصبوا انفسهم قضاة وحكاما على ذلك التكوين ، والذي كان يسمح ثانيا بدمج جميـــع الطبقات في الامة المكونة على ذلك النحو ، هذا الالتباس يكفي وحده للبرهان على العجز النظري والعملي للمروجين لتلك الصيغة .

هنا ايضا ، وحتى لدى أولئك الذين يقدمون «المبـــدأ الطبقي» على ما عداه ، كانت الغلبة للمبدأ القومي . وبذلك كان يسعهم ان يتعايشوا ، تعايشا سلميا نسبيا ، مع اولئك الذين كانوا يضعون صراحة وجهارا المبدأ القومي فوق المبدأ الطبقي . وهذا في أطر الديموقراطية الفرنسية .

● في تفكير الامميين الماركسيين يفترض فـــي صراع الطبقات ، اذا ما خيض حتى نهايته ، ان يوحد الامم بإزاحته بالعنف أو بغير العنف البورجوازيات المتنافسة ، الخالقــة للقوميات والمستفيدة منها فيما بعد ، العاجزة عن تنظيـــم السوق العالمية ، والمتخبطة بالتالي بين الحدود القومية وبين واسع آفاق العالمية .

حين استلم لينين مقاليد قيادة الحركة الثورية بعـد اعادة تكوينها وتوصل الى الامساك بزمام سلطة الدولة في روسيا ، لم يتوقف عن ربط الثورة في قطر من الاقطـــار بسيرورة اجمالية . فلئن نسف «الحلقة الاضعف» فـــي السلسلة الامبريالية المطوقة للعالم، فهذا حتى تنهار السلسلة بكاملها ! وكان تقديره ان الثورة في روسيا ستشعل فتيل الهجوم البروليتاري في الاقطار المتقدمة طرأ . فالاسباب

التاريخية التي تدفع بالطبقة العاملة الى الامام في روسيا ، مع حلفائها الفلاحين ، لا تفصلها عن سائر فصائل الطليعة وعن سواد الجيش . والمبدأ الطبقي سيتغلب على المبـــدأ القومي . وحتى تنطلق المسيرة وتنفلت من عقالها فان ثمة ، في تقدير لينين في ذلك الوقت ، تصفية ضرورية وكافية. اذ ينبغي شق الحركة العاملة ، وفرز الخونة من المخلصين، وفصل الاصلاحيين عن الثوريين . وهذا العمل وحده كاف ليفوز الاخيرون بالغلبـــة . ولن يتوانى ســـواد الجيش البروليتاري بعد ذلك عن المسير . كذلك لن تلبث الجماهير ، بعد تنويرها بخيانة القادة الاصلاحيين والارستقراطيـــة العمالية ، ان تتوجه نحو قادة الثورة وتشق طريقها نحـــو العلم الاحمر . براحة ضمير وإرادة ، اذن ، امر لينين بشق الحركة وبتكوين **الاممية الثالثة** .

ويمكننا اليوم ان نقول ، بعد مرور اربعين عاما ، ان الانشقاق كان ضرورة وكارثـــة تاريخيتين في آن معا ، ولاسيما ان العملية نفذت بحزم وشدة في جو من بلبلة كبيرة، وان الانشقاق السياسي بولغ فيه حتى استوفى آخر نتائجه في الحركة النقابية ، اي شمل حتى أسس الحركة العمالية بالذات . ولعل ذلك لم يكن امرا محتوما .

لقد رسم لينين في روسيا ، في مواجهة الاوتوقراطية القيصرية والليبيرالية البورجوازية ، استراتيجية وتكتيكا معا . ولقد حدد الهدف بأنه دفع الثورة الديموقراطيـــة البورجوازية الى نهاياتها : الى النقطة الحرجة التي تتبدل عندها نوعية الديموقراطية اللامتوقفة عن التطور المطـــرد

وتتحول الى ديموقراطية اشتراكية ، اي الى دكتاتورية للبروليتاريا مع تلاشي الدولة . ولبلوغ هذا الهدف بحث عن حلفاء سياسيين يعنيهم ، كالطبقة العاملة ، امر تعميق الديموقراطية . وقد وجدهم . انهم ليسوا الليبيراليين ، الطبقات المتوسطة ، البورجوازيين الصغار . وانما هم الفلاحون . وقد قدم لهم لينين الاصلاح الزراعي ، اصلاحا ثوريا . وحمل اليهم برنامجا : السوفييتات زائد الكهربة ، ولكن ايضا تحرير القوميات المضطهَدة من قبل القيصرية . ان تطور المجتمع الاشتراكي سيكون معقدا ، ولن يقتصر على النمو الاقتصادي .

وبالمقابل لم يكن لدى لينين وقادة **الاممية الثالثة** ، على الصعيد الاممي ، سوى تكتيك : الانشقاق السريع الذي لا يقبل مساومة. فهل قدموا على هذا المستوى فكرة سياسية؟ هل حملت السوفييتات فكرة كهذه ؟ من الممكن ان نطرح السؤال على أنفسنا . فمفهوم «مجالس» الجنود والعمال والفلاحين كان يمكن ، الى حد ما ، ان يلقى من يتفهمه ويتبناه في المانيا . اما في فرنسا فلا يبدو انه وجد من يتمثله ، وفي اغلب الظن كان مفهوم «الكومونة» اكثر حياة ، وان يكن قد أمسى باليا، فائت الاوان. وكانت الديموقراطية الشكلية المتطورة نسبيا للجمهورية الثالثة تسد الافق امام المشروع السياسي لديموقراطية مباشرة ذات تفويض ملزم وقابل للنقض . وهنا ايضا كان للاوضاع والتقاليد القومية دورها في الحؤول دون امتداد فكرة سياسية كبرى الى النطاق العالمي .

● ترتب على فشل الثورة في المانيا فشل الثـــــورة العالمية . وفي عام ١٩٢٥ كان هذا الفشل قد بات محققا . مؤكدا ، بالرغم من الاختلافات التي لن تتوقف . الحلقة اذن قد تماسكت والتحمت من جديد . ولم تنفصل عنها سوى حلقة واحدة ، وان تكن كبيرة . انه استقرار الرأسماليـــة الذي اعلنت **الاممية الثالثة** انه سيكون مؤقتا . ومن سوء الطالع ان ألازمة العامة (ازمة دورية متفاقمـــــة ، بحسب تكهنات بعض «اليساريين» ، من دون ان تبلغ مع ذلك حد النكبة) حملت الفاشية الى سدة السلطة في المانيا ولم تحمل ممثلي الطبقة العاملة . وسوف يتمخـــض الانشقاق شيئا فشيئا عن عواقبه ، ولن يكون هناك محيص عن شرب كأس الحنظل حتى الثفل .

ماذا جرى ؟ ان الانشقاق لم يحدث المفعـــول المباشر والفوري الذي توقعه لينين والكومنترن . لم يؤد الى عزلة الزعماء الاشتراكيين وانهيار الاشتراكية ــ الديموقراطية ؛ ومجـــرد استمرار الوجود السياســـــي للاشتراكيين ــ الديموقراطيين يعني انهم على قدر ، ولو محدود ، مـــن الصواب ؛ وسيكون هناك استمرار ، تطور ، دوام للأطـر القومية ، انقطاع وانفصام وقفزة وتحول مباغت . ولـــن يتمخض الانشقاق الذي كانت تتوخى منه نتائج عظيمة الا عن عواقب مفجعة . وسوف تجد الحركة العمالية نفسها ، في اكثر بلدان العالم بروليتارية ، وقد طغت عليها الهتلرية. وسوف تقف عاجزة عن المقاومة والتصدي للايديولوجيـــا القومية والامبريالية المرفوعة الى الذروة .

ابتداء من عام ١٩٢٥ ستتعايش جنبا الى جنب ، بصورة غير سلمية ، عدة **أمميات** . كانت **الاممية الثانية** قد أمست مجرد مكان للقاء والنقاش الودي بين ساسة الاحزاب الاشتراكية الذين لا يلبث كل واحد منهم ان يتصرف في بلاده على هواه دونما تنسيق. أما **الاممية الثالثة** فقد صارت تمثل تنظيما هرميا ، تراتبيا ، في غاية المتانة ، وليس استراتيجية أممية حقا . وبنيتها شبه عسكرية ، وذلك بحكم انضباط وانتقاء مسؤولين دائمين . ولم تتمكن من البقاء على قيد الحياة بعد ان أفلت من بين يديها هدفها الاولي ــ الثورة العالمية ــ الا بتحولها الى اداة للسياسة الستالينية . اما **الاممية الرابعة** (التروتسكية) فقد نجمت عن انشقاق في داخل **الاممية الثالثة** . وقد حافظت على موقف أممي صلب ، على أصلب ما يمكن ان تكون الاممية ، ولكنها كانت ضعيفة الفاعلية ، قليلة النجع . وسوف تبقى على قيد الحياة هدفا لهجمات الستالينيين ولاقبح افتراءاتهم . وسوف تكون فزاعتهم !

● اذا كان ماركس لم يلح على نظرية الامة والمسألة القومية ، فهل كانت هذه ثغرة في الماركسية ؟ مهما يكن من امر ، فان ستالين بسده هذه الثغرة الظاهرة او الفعلية اعطى المسألة مكانة الصدارة . ومؤلفه «الماركسية والمسألة القومية والكولونيالية» يتمم الكراسة التي بدأ بها في عام **١٩٠٤** حياته السياسية . وكان عنوان هذه الكراسة (السابقة على انشقاق الحركة) «كيف تفهم الاشتراكية ــ الديموقراطية

المسألة القومية ؟» (١) .

ان كتابات ستالين تتلخص في تعريفه المشهور : **الامة جماعة مستقرة ، متكونة تاريخيا ، توحدها روابط اللغة والارض والحياة الاقتصادية والتكوين النفسي ، وتعبر عنها وحدة الثقافة** . هذا التعريف على كل حال مقبول. والسياق يبين انه يريد نفسه «عامليا» ، كما يقال اليوم . وهو يقترح معيارا . انه تعريف لسياسة اكثر منه مفهوما تم انشاؤه علميا . والمهم هو ، بالبداهة ، الممارسة التي يبررها هذا التعريف ويغطيها ويحجبها عند الاقتضاء . والعلاقة بين الطبقات والامة لا تظهر حتى مجرد ظهور في التعريف. فهذا الاخير يلح ، بحكم صياغته بالذات، على واقع ان البروليتاريا والبورجوازية تؤلفان واقعا اجتماعيا ، جماعة ذات وحدة . وبالرغم من ان ستالين يرفض الاطروحة الماركسية النمسوية عن دور «وحدة المصير» ، فان المجتمع يبدو له متحددا بالأمة وتاريخها بقدر ما يتحددأن او حتى اكثر مما يتحددان بنمط الانتاج .

ان الستالينية ظاهرة تاريخية هائلة لا تتكشف مظاهرها وأسبابها وعللها ونتائجها الا ببطء وتؤدة . وفي مستطاعنا،

---

١ ـ النص المذكور مترجم في كراسة «اشتراكية او فوضوية ؟» في سلسلة «من التراث الماركسي» ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٤ . والواقع ان ستالين بدأ بالكتابة السياسية في عام ١٩٠١ ، وليس في عام ١٩٠٤ كما يقول لوفيفر . ـم ـ

من المنظور الذي يستأثر باهتمامنا هنا ، ان نعرّفها ، ولكن التعريف لا بد ان يأتي جزئيا وناقصا . فالستالينية تتميز بشقاق بين النظرية والممارسة ، بين الاقوال والافعال ، بين الايديولوجيا والعمل . فثمة انشاء جمل ثوري ، «يساروي»، قد غطى سياسة تسوية (انتهازية) . وثمة ايديولوجيا طبقية قد موهت عملا مبنيا على اساس اسبقية وأولوية الشعور القومي . كما ان الدوغمائية الفلسفية ، داخل الحركة ، قد حجبت عن الانظار التذبذبات والانعطافات والتقلبات وغياب الفكر والابداع المذهبيين . وقد بلغ ذلك الشقاق حد التناقض الذي ستره العنف الفظ .

لا مجال البتة للخلط بين الستالينية وبين الفاشية والتوتاليتارية الهتلرية . فسوء الاستعمال الستاليني لسلطة الدولة والعنف لم يسر في الاتجاه ذاته . والدوغمائية الستالينية لا سبيل الى مقارنتها بالايديولوجيا العنصرية . وقد كانت ألحرب بين ١٩٤١ و١٩٤٥ مواجهة بين بنيتين اجتماعيتين متناحرتين . ومع ذلك تواجهت هاتان البنيتان (بالضرورة) على ارض واحدة . فالاشتراكية القومية لروسيا السوفياتية في عهد ستالين وقومية هتلر الاشتراكية تواجدتا في سياق من الظروف جمع بينهما معا . وفي مستطاعنا اليوم ان نذهب ألى ان تشديد ستالين للهجة على الواقعة القومية لم يسهم في تنمية القدرة على المقاومة الايديولوجية والسياسية ضد الهتلرية لدى الشعب الالماني.

وفي فرنسا طبق موريس توريز بوفاء غير مشروط ذلك الاتجاه . اليكم ، على سبيل ألمثال ، تصريحه في مؤتمر

الحزب الشيوعي الفرنسي في فيوربان في عام ١٩٣٦ ، الذي أعيد نشره في كتابه «ابن الشعب» (طبعة ١٩٤٩ ، ص ٩٦ — ٩٩) : «يندد الشيوعيون بأولئك الذين يسيئون الى التراث القومي ويكافحونهم ... ونحن نريد ، ضد الطفيليين وضد الخونة ، وحدة الامة الفرنسية ...» . وقد جرى تبني هذا التصريح وتوكيده مرارا وتكرارا : «ان المهمة المقدسة لحزبنا الشيوعي الفرنسي هي بالتحديد ان يمسك بين يديه القويتين ، بحزم أشد من اي وقت سبق ، براية النضال في سبيل استقلال بلادنا وسيادتها القومية» (خطاب اللجنة المركزية ، تشرين الاول ١٩٤٧) .

في هذا الاتجاه حلت ، بصورة منطقية تماما ، سياسة الجبهة الفرنسية والجبهة القومية محل سياسة الجبهة الشعبية . ولم تعد الاممية تعني سوى دعم غير مشروط للاتحاد السوفياتي، وباتت المشكلة النظرية الوحيدة التوفيق بين هذه اللامشروطية وبين وطنية مجاوزة الحد . ومن هنا كان النظام الحزبي الثلاثي (ثلاثة أحزاب في السلطة : الشيوعي ، الاشتراكي ، والحركة الجمهورية الشعبية) عند التحرير ، ومشاركة البروليتاريا الثورية في اعادة تعمير البلاد ، والقبول ابان تلك الحقبة بالاستعمار وأعمال القمع الاستعمارية .

والمفارقة ان ما من احد (باستثناء بعض القادة والايديولوجيين) قد حمل على محمل الجد التام هذا الموقف السياسي . فغالبية المناضلين القاعديين في الحزب الشيوعي الفرنسي كانوا يرون فيه محض تكتيك على طريقة حصان

طروادة : التسلل الى معسكر الخصم بدهاء لغزوه وتدميره. وكانوا متفقين في ذلك مع تقييم خصومهم السياسيين ، ويقدمون لهذا التقييم المبررات . والحال ان المفارقة التاريخية تكمن في ان تلك الوطنية لم تكن متكلفة او متصنعة البتة فيالاوساط القيادية . وبالرغم منجهود الايديولوجيين والكتّاب (وبخاصة لويس اراغون) لم يتوصل هؤلاء القادة الى حمل الآخرين على سماع كلمتهم وتصديقها . فقد كان ثمة شيء ما (عاطفية او عقلانية ؟) يقاوم ويمانع . ومن هنا كان ، ابان تلك الحقبة بأسرها ، جو البلبلة والتذبذب النظري والتسوية العملية والالتباس . وهو جو غير مناسب كثيرا للوضوح ، ويحجب عن الانظار الوقائع والمعضلات .

● لنلخص الان ما جرى ، ابان ذلك ، في «الجانب البورجوازي» . ان سياسة البورجوازية وأيديولوجيتها لا تغني البتة عن دراسة واقعها الاجتماعي وقاعدتها الاقتصادية اللذين تقوم عليهما تانك السياسة والايديولوجيا . بل على النقيض من ذلك : فالتفهم والتفسير يستوجبان تلك الدراسة . بيد ان استحضار تانك السياسة والايديولوجيا، في مقالة لا خيار لها الا في ان تكون مقتضبة ، يستطيع الاستغناء عن دراسة اقتصادية وسوسيولوجية مفصلة .

معلوم ان البورجوازية الفرنسية حل بها ، في فترة ما بين الحربين ، وهن شديد . وقد اعطت الانطباع ، وهو انطباع صحيح في اغلب الظن ، بأن فرنسا كانت يومئذ قطرا امبرياليا وأضعف حلقات السلسلة الامبريالية في آن معا. وقد التجأت البورجوازية الحاكمة عهدئذ الى ملاذ المالتوسية

(التقنية ، والاقتصادية ، والفيزيولوجية ، الخ) . وكان ضيق الافق القومي والمذهب المالتوسي المعمـــم يسيران متواكبين ، قابلين للتعرف في احيان كثيرة ، ومموهين في احيان قليلة ، في الوقائع الثقافية والاعمال . وكانت تلك البورجوازية تغوص اكثر فأكثر في وحل الركود النظري والعملي ، المادي والروحي . ولم تعد تبالي حتى باختراع ايديولوجيا قمينة بالتوفيق (في الظاهر او في غير الظاهر) بين القومية والاستعمار ، بين الديموقراطية في الدولة المتروبولية والاضطهاد فيما وراء البحار . وكان يكفيها مذهب عقلاني معتدل ، ومذهب لاعقلاني مموه ، من دون ان يكون بينهما تعارض شديد . ما اسباب ذلك ؟ نزيف حـــرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ الكبير ؟ المنظورات الضيقة والمحـــدودة لـ «الأفق الأزرق» ؟ مصلحة الوضع القائم الاوروبي والعالمي بعد معاهدة فرساي ؟ غباوة وراثية ؟ الخوف والحقد الطبقي اللذان كانا يعميان خيرة العقول ، والرعب من الثـــورة البروليتارية ؟ ان تلك الطبقة ، العاجزة والمشلولة ، كانت تتلفت هي وممثلوها ، على نحو غير قابل لان يمارى فيه ، نحو الاجنبي بحثا عن سند ايديولوجي وسياسي . وراحت القومية تنزلق باتجاه الفاشية ــ وهو نزوع كان يعاكسه نزوع آخر يحفظ البنى ويبقي عليهـــا : الديموقراطية ــ الامبريالية ، والبنى المؤائمة للابقاء على الوضع القائم وعلى معاهدة فرساي والاستعمار .

كان مثل هذا الموقف السياسي يبرر بلا جدال اتحاد الاحزاب اليسارية : اليعاقبة (الراديكاليين) ، امميي **الفرع**

الفرنسي من الاممية العمالية (١) الشيوعيين الستالينيين ، في **الجبهة الشعبية** . ومع ذلك يمكننا ان نتساءل عما اذا لم تكن هناك امكانية لمعارضة او لهجوم مضاد من قبل البروليتاريا الثورية في عام ١٩٣٦ ، وبالتحديد عند اندلاع الحرب الاسبانية ، وعما اذا لم يكن ذلك عميم النفع فيما لو حدث .

والآن اذا تركنا جانبا هذه المسائل التاريخية التي بدأت تغادر مسرح قضايا الساعة الراهنة ، أمكننا ان نتذكر ان التحرير كان انتصارا للمساواة بين الشعوب والامم على الاطروحة الفاشية القائلة باللامساواة بين العروق والاجناس. وبعد التحرير تطورت العلاقات بين الامم والطبقات . فعلى امتداد سنين عديدة خيل للاوساط الحاكمة ان المساعدة الاميركية (مشروع مارشال) ضرورية لا غنى عنها لمعاودة فرنسا النهوض . وهذا بالرغم من النشاط المرموق الذي بذله في هذا الاتجاه الشيوعيون الذين حثوا البروليتاريا الفرنسية على أعادة تعمير البلاد ، مؤكدين بذلك ومثبتين انهم وحدهم القادرون على اداء هذه المهمة على الوجه المرام. ولكن ما ان أعيد وصل الجسور وبناء المشروع، حتى صُرفوا واستغني عن خدماتهم بقدر كاف من عدم التهذيب واللياقة. واستمرت اعادة التعمير بدونهم ، بفضل المساعدة الاميركية. وبعد ذلك خرجت الرأسمالية من المحنة وقد طرأ عليها بعض

---

١ ــ هو الاسم الرسمي للحزب الاشتراكي الفرنسي . ــم ــ

التعديل ، لكن من دون ان تتخلى عن بناها الاساسية . وقد وجد الاقتصاديون وعلماء الاجتماع للرأسماليه الطارىء عليها التعديل المشار اليه تسميات كثيرة ليس بينها تسمية واحدة مطابقة : الرأسمالية الجديدة ، المجتمع الصناعي ، مجتمع الاستهلاك ، مجتمع الجموع ، مجتمع اوقات الفراغ ، الخ. فهذه التسميات لا يستوقفها سوى مظهر واحد من مظاهر الواقع ، فتبادر الى تضخيمه وتعميمه . كذلك هو شأن التعاريف التي تبناها الماركسيون الرسميون : راسمالية الدولة الاحتكارية ، الامبريالية الجديدة ، الخ .

اننا نواجه هنا ظاهرات معقدة ، انتقالات تارة مرهفة وطورا فظة ، آنا مخاتلة وآنا اخر فعلية ، بين الليبيرالية والتخطيط ، بين التدويل والمبادهة الخاصة ، الخ . ولنتوقف هنا عند مظهر واحد محدد من ذلك التعديل الذي نحرص على التوكيد بأنه لم يبدل البنى الاساسية لنمط الانتاج الرأسمالي ، وبأنه زاد على العكس في تفاقم عواقبه الضارة من استلاب للجميع واضطهاد واستغلال للطبقة العاملة .

لقد فهم الحكام الرأسماليون ان هناك امكانية لتوظيف الرساميل في الداخل ، من دون التخلي عن التوظيفات في الخارج . وهكذا راهنوا على الاسواق الداخلية لضمان النمو الاقتصادي . وصار ازدهار المانيا ، بعد قهرها وتجريدها من مستعمراتها وأقاليمها المغزوة ، وكذلك من الرساميل المصادرة ، ضربا من مثال وقدوة . ولا اهمية تذكر ، من هذا المنظور ، لكون الانتعاش الاقتصادي ناجما عن دمار

الحرب ، او التسلح ، او التقدم التقنـــــي ، او الضغوط النقابية . وثمة في فرنسا ظاهرة ايديولوجية مثيرة فعــلا للاهتمام ، منذ بضع سنوات ، هي «الكارتية» (١) . **فالمذهب** الذي تروج له باري ــ ماتش ومحرروها له من النفـــوذ السياسي الفعلي اكثر مما لليبيرالية الجديدة او للنزعـــة التخطيطية الجديدة . وقد جعل منه النظام مذهبا شبـــه رسمي . ارموا المستعمرات ! كفوا عن مسانـــدة البلدان النامية وعن تبديد ثروات هائلة فيها . وظفوا في الدولة ــ الأم ، لتكن هذه التوظيفات حافزا للاقتصاد القومي . هذا هو جوهر «الكارتية» .

لقد فتح النمو الاقتصادي في اوروبا وفي فرنسا أفقا جديدا امام الحكام السياسيين . فهم يستطيعون او يخيل اليهم انهم يستطيعون الانعتاق من الضغط الاميركي . وهم يريدون انتهاج سياسة عالمية مبنية على الواقع القومي . ويقولون انهم اعادوا بناء الاستقـــلال والسيادة القوميين (الشيء الذي كان قادة الحزب الشيوعي الفرنسي وموريس توريز يؤكدون انه مستحيل بدونهم ، بدون مشاركة «ممثلي الطبقة العاملة» في السلطة) .

● الى هذه التقريرات ، الى هذه التحليلات الاولية ،

---

١ ــ نسبة الى ريمون كارتييه اشهر معلقي فرنســا السياسيين اليمينيين في مجلة «باري ماتش» اليمينية . ــم ــ

لنضف بعض ملاحظات . ان التطورات الاجتماعية ـ الاقتصادية التي تتم في البلدان المسماة ب «النامية» لا تبرز الى المقدمة الظاهرات الطبقية (وان لم تكن هذه الظاهرات غائبة ، فالامر أبعد ما يكون عن ذلك) . فمكانة الصدارة انما تحتلها المطالب القومية ، وكذلك المطالب المتعلقة بملكية الارض (الاصلاح الزراعي) والمشكلات الفلاحية من جهة اولى، ومن الجهة الثانية مشكلات التراكم والتصنيع في الاطر القائمة . وأينما أجلنا الطرف لاحظنا ان ثمة بورجوازية جديدة آخذة بالتكون ، بورجوازية مرتبطة بأجهزة الدولة اكثر مما هي مرتبطة بالاسواق الداخلية . انها تمثل شكلا جديدا من البورجوازية القومية: البورجوازية البيروقراطية، السياسية، التكنوقراطية. ويتواكب تكوّنهذه البورجوازية بتناقضات جديدة لا يتسع المجال هنا لتحليلها .

خاتمة ـ ان عصرنا يتحدد ، منذ نحو قرن من الزمن ، بالتنازع بين **المبدأ الطبقي والمبدأ القومي** (بالمعنى العملي والعيني الصرف الذي أعطيناه لكلمة **مبدأ**) . وقد حاول الاول ان يقهر الثاني ، ان يسيطر عليه ، ان ينتصر عليه . لكنه لم يفلح . وقد حاول الثاني بدوره ان يمتص الاول ، ان يبتلعه ، ان يخنقه . وبالرغم من النقاط التي سجلها ، وبالرغم من ان الآخر خارت قواه ، لم تكتب الغلبة للمبدأ القومي . فالطبقات وصراعات الطبقات لا تزال مستمرة ، وان اصابها وهن وتميع هنا ، واحتداد وتضخم هناك . وقد نجم عن هذا الوضع انطباع باستقرار ، بتوازن قريب بل

ناجز ، بتبنين Structuration متين .

فهل سيتأكد ويتعزز الانتصار النسبي للمبدأ القومي ؟ وهل يستند انطباع الاستقرار والتوازن الى اساس من الصحة ؟ وهل ثمة ما يبرره ؟ ليس هناك دليل يثبت ذلك .

ان التصنيع العالمي بعيد عن ان يكون قد بلغ آخر شوطه . ويتمخض التطور اللامتكافىء عن نتائجه جميعا ومفاعيله كافة ، وهي تبعث على الدهشة في كثير من الاحيان . هكذا تبدو الطبقة العاملة في بعض الاقطار صاحبة امتيازات كثيرة بالمقارنة مع الفلاحين المقتلعين من جذورهم ، او بالمقارنة مع العاطلين عن العمل (على سبيل المثال : انكلترا) . ومع ذلك لا يمكن أعتبار التطور اللامتكافىء سوى مرحلة تاريخية ، سوى ميل ونزوع ، ولا يمكن اعتباره قانونا عاما ثابتا . انه هو الآخر انتقائي .

من مجمل هذه الظاهرات يتضح ان المبدأ الطبقي لا يستطيع بعد ان يطمع برتبة المبدأ العالمي ، ليسيطر علىالامم وعلى المبدأ القومي . لكن ماذا سيحدث ابان التصنيع الذي لا يزال جاريا على قدم وساق ؟

على هذه القاعدة الاقتصادية الجديدة ، على هذا النزوع الى الخروج موضوعيا وذاتيا من الاطار القومي الثابت ، يتسع المجال لعدة استراتيجيات سياسية :

الفرضية الاستراتيجية الاولى : تتم المحافظة على الامم ، بقدر الامكان ، كإطارات اقتصادية واجتماعية وسياسية

وثقافية .

الفرضية الاستراتيجية الثانية : يُرخى العنان لـ«اقطاب النمو» ، اي المناطق الصناعية الاكثر تطورا ، لكي تمارس عملها وتأثيرها. ويجري تشكيل اوروبا فدراليةاو كونفدرالية متمحورة على اقوى القوى الاقتصادية (تقنيا ، ماليا) .

الفرضية الاستراتيجية الثالثة : يُرسم مشروع اوروبا موحدة ولكن ديموقراطية ولامركزية ، بالاستناد الى القوى الاجتماعية القادرة على العمل في هذا الاتجاه ، على **ان تؤخذ** بعين الاعتبار الى أقصى حد حاجات المناطق الواهنة التطور وصبواتها ومطامحها .

الفرضية الاستراتيجية الرابعة : ينظم ضد القوى الاقتصادية و«الاقطاب» تحالف المناطق والبلدان المتخلفة ، والمصالح المهملة ، والجماعات الملجومة او المضطهَدة .

مع الفرضية الثالثة يمكن اخيرا لنزعة أممية محدودة ان تتحول الى استراتيجية ، فتتصدى بفاعلية لقوموية الفرضية الاولى ، وكذلك لما فوق قوموية الفرضية الاستراتيجية الثانية بطابعها البورجوازي . وهذه الاستراتيجية لا يمكن تصورها بدون معاضدة المنظمات النقابية والسياسية للطبقة العاملة .

واذا اتضحت للعيان استحالة بناء «نموذج» اشتراكي وإدراجه فيالممارسة بالنسبة الى البلدان الاوروبيةالمتطورة، بحيث يضمن استمرار هذا التطور في وحدة جديدة ، فان الطريق الرابع سيفرض نفسه . وهذا الطريق يعني ان تشن

جميع الاقطار والطبقات المغبونة والمضطهَدة هجوما متواقتا على جميع «المحبوبين» من طبقات وأمم على حد سواء .

«دفاتر علم الاجتماع الدولية»
كانون الثاني ـ حزيران ١٩٦٥
المجلد ٣٨

إيرل اوفاري

الماركسية والقومية وحركة تحرير السود

لقد انطرحت مسألة العلاقة بين الماركسيـــة والشعب الاسود في مراحل شتى من تاريخ نضال السود . وقـــد اثارت هذه المسألة مناقشات حادة في صفوف بعـــض الجماعات . وقد عالج هارولد كروز في «ازمة المثقـــف الزنجي» بعض جوانب شكل تلك المسألة ومضمونها . بيد ان بعضا من الحجج التي أبرزت ضد الماركسية او معها قـــد

افضت الى اتخاذ موقف دوغمائي تجاه هذه الفئة او تلك . وهذا امر يدعو الى بالغ الاسف اذا ما اخذنا بعين الاعتبار انه لمن الجوهري بالنسبة الى الشعب الاسود المضطهَد ، اكثر من اي وقت سبق ، ان يتفهم تفهما نظريا محكما التيارات التاريخية التي كونت المجتمع الاميركي . ان هذا التفهم ضروري اذا كان السود يرغبون في رسم خطط في المستقبل ووضع برامج .

لقد وجدت المنظمات الماركسية نفسها في فترات مختلفة من تاريخ الولايات المتحدة الاميركية على خلاف مع بعض انصار النزعة القومية السوداء . ومن الادلة التي نستطيع ان نجدها على ذلك النزاع الذي نشب بين غارفي **Garvey** وبين الاشتراكيين السود الاوائل في العشرينات من هذا القرن ، وكذلك في ذاك الذي نشب بين «الرابطة القومية لتقدم الملونين» وبين الحزب الشيوعي في الثلاثينات والاربعينات ، واخيرا في النزاع الناشب اليوم بين جماعات معينة مثل «المؤتمر القومي للمساواة العرقية» وبين اليسار العمالي . ويرجع أصل الخلافات التي تفصل بين هذه المنظمات الى ان بعضها يدعي ان نضال السود هو قبليا نضال عرقي ، بينما يزعم بعضها الآخر انه نضال اجتماعي. والمشكلة بلا ريب معقدة ، ولا تتقبل محض اختيار بين رأي ورأي كما حاول ان يفعل جورج بادمور منذ بضع سنوات في كتابه «أأفريقانية أم شيوعية ؟» . فلدراسة هذه المشكلة دراسة بناءة ، لا بد اولا من تقييم الاسس النظرية للمسألة.

اهتم ماركس وانجلز بمشكلة التوسع الاوروبي في

العالم الثالث في حوالي عام ١٨٥٠ . وفي الحقبة نفسها تقريبا شرعا جديا بتجميع العناصر الضرورية لدراستهما الاهم عن المجتمع الصناعي الاوروبي . وقد ظهرت كتابات ماركس الاولى عن الاستعمار الاوروبي في شكل سلسلة من المقالات في «نيويورك ديلي تريبيون» . وكانت الصياغات الاولية لماركس وانجلز حول الحركة القومية في العالم الثالث المستعمَر تعكس تماما وجهة نظر البيض الغربيين .

فعلى الرغم من ادانتهما الفظاعات التي اقترفها الاوروبيون ضد الملونين ، نظراً الى الاستعمار نظرتهما الى شيء مرغوب ومطلوب . فقد كان ماركس يرى فيه ، مثلما يرى في الرأسمالية ، طورا ضروريا من أطوار التطور . وكان يعد ، كغالبية الاوروبيين يومئذ ، الملونين «همجا» و«متوحشين» يمكن ان يستفيدوا لا من انظمة اوروبا السياسية والاقتصادية فحسب ، بل أيضا من انظمتها الاجتماعية والثقافية . وفي البداية لفظ ماركس وانجلز على حد سواء كل ما هو غير اوروبي الى رتبة البدائيات ، ابتداء من شيوعوية (١) أفريقيا الغربية الى المؤسسات الصينية الثقافية القديمة . وكان ماركس ، مثله مثل كل غربي ، يعد هذه المؤسسات «راكدة» ، «آسنة» ، وقد كتب في مقال عن السلطة البريطانية في الهند ، ظهر في الـ «تريبيون» في ٥ حزيران ١٨٥٣ ، كتب يقول :

---

١ ـ الشيوعوية : الشكل البدائي من الشيوعية .

«لا يجوز ان ننسى ان هذه المشاعات القروية [الهندية] المتغنى بها ، مهما بدت وديعة ، كانت على الدوام في اساس الاستبداد الشرقي ، وانها حبست على الدوام الفكر الانساني عن التحليق ، قاضية عليه بأن يكون تحت رحمة الخرافات، جاعلة منه عبد القواعد التقليدية ، وحارمة اياه من عظمته وطاقاته التاريخية» .

وفي البداية كان انجلز يكن ازدراء أشد ايضا لقيم الملونين . وقد وافق كل الموافقة على الاحتلال الفرنسي للجزائر . ففي مقال ظهر في «نورثرن ستار» في ٢٢ كانون الثاني ١٨٤٨ كتب يقول :

«ان فتح الجزائر حدث هام وبشير خير لتقدم الحضارة ... وقد أجبر من الان بايات تونس وطرابلس ، وحتى امبراطور مراكش ، على الدخول فيطريق الحضارة» .

لكن مع مرور الزمن شرع ماركس وانجلز بتؤدة يعيدان النظر في العديد من مواقفهما من مسألة حركات الملونين القومية . فقد بدأ يساورهما الاعتقاد بأن النضال المناهض للاستعمار ينطوي على أشياء اكثر بكثير مما خيل اليهما في الوهلة الاولى . ففي العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر شمل تغلغل الاوروبيين الاستعماري في افريقيا القارة بأسرها عمليا . وبالفعل ، كان مؤتمر برلين لعام ١٨٨٥ الذي وزع افريقيا بين الدول الاوروبية بمثابة النهاية ، لا البداية، للغزو الاوروبي للامصار الافريقية . ومع توطد دعائم السلطة الاستعمارية بين ١٨٦٠ و١٨٧٠ اقتنع ماركس وانجلز تدريجيا بأن الاستعمار يؤول الى شيء مختلف عظيم

الاختلاف عما كانا قد أملاه في بادىء الامر . فهو لم يكـن عمليا سوى نظام فاسد للاضطهاد والاستغلال . وقد كتب انجلز بعد ان فهم ذلك في مقال عن الجزائر في عام ١٨٥٧ يقول :

«منذ بداية احتلال فرنسا للجزائر ... لم يعرف هذا البلد التعيس سوى التذبيح والنهب والعنف ... والقبائل العربية والقبيلية التي تثمن الاستقلال عاليا والتي يمثل كره السيطرة الاجنبية عندها مبدأ أعز من الحياة نفسها ، قد سُحقت وحطمت بقوة غزوات رهيبة ... ومع ذلك لا تزال هذه القبائل تؤكد استقلالها وكرهها للنظام الفرنسي...»(١)

وبعيد ذلك بسنوات طفق ماركس بدوره يغير رأيه بصدد القيمة الاحتمالية للنظام المشاعي بوصفه بنية تقدمية . وقد كتب يقول :

«ان التحليل المقدم في (**الرأسمال**) لا يطري ولا يصف حيوية المشاعة القروية ، لكن الدراسة الخاصة التي قمت بها عنها والتي تقصيت عناصرها في مراجعها الاصلية قد اقنعتني أن ذلك الضرب من المشاعة هو الجسر الاستراتيجي لانبعاث روسيا» (١) .

---

١ ـ هوراس ديفيس : «القومية والاشتراكية» ، نيويورك ١٩٦٧ ، ص ٦٥ .

١ ـ عولجت هذه المسألة بالتفصيل في «كارل ماركس والاستعمار والتحديث» ، نصوص جمعها شلومو افنيري ، نيويورك ١٩٦٩ .

ومن المفيد ان نلاحظ ان ماركس وانجلز اتخذا اثناء تلك الحقبة نفسها موقفا متقدما بعض الشيء من المسألة الموازية ، مسألة تقرير المصير الذاتي للشعوب والنضالات القومية في القارة الاوروبية . واننا لنجد في كتابات كل منهما اشارة واضحة جدا الى الموقف الايجابي الذي اتخذاه من تلك الظاهرات . فبين ١٨٦٠ و١٨٧٠ دافع ماركس عن حق ارلندة في الاستقلال . وكان قد أيد في عام ١٨٤٨ استقلال الامم التي كانت تسترقها الامبراطورية الجرمانية. كذلك رفع انجلز صوته عاليا للذود عن استقلال بولونيا .

بيد انهما كليهما ما كانا اطلاقيين بصدد مسألة تقرير المصير الذاتي للشعوب . فقد كانا يعتقدان ان كل حركة قومية ينبغي الحكم عليها على حدة وبحسب مزاياها الخاصة قبل ان تبيح الطبقة العاملة ، في الامة التي تحكم اصحاب المطالب ، لنفسها تأييدهم في مطالبهم . هكذا دافع ماركس وانجلز عن حقوق ارلندة وبولونيا ، وعارضا في الوقت نفسه حركة الوحدة السلافية في اوروبا الشرقية .

ومهما يكن من امر ، وبالرغم من انهما كليهما عدلا وجهات نظرهما بمرور الزمن ، فان تحليلهما لبث ناقصا . ففي هذا المضمار الخاص كشفت الماركسية الكلاسيكية عن نقاط ضعفها ، ولم تبرز بوصفها النموذج الاجتماعي الاوسع والارحب الذي كان من المبرر توقعه . وهذا الميراث تحديدا هو الذي ترك للماركسيين الاميركيين الاوائل من العرق الابيض .

فقد آثر هؤلاء في بادىء الامر ان يتجاهلوا النضـــال القومي للملونين في سبيل تحررهم وتقرير مصيرهم بأنفسهم. وقد تحول هؤلاء الاشتراكيون، في محاولتهم توجيه برامجهم نحو العمال البيض في الصناعة الاميركية ـ وكانوا مـــن المتطرفين عنصريا ـ تحولوا هم انفسهم في العديد مـــن الحالات الى عنصريين سافرين .

فقد رفض الحزب الاشتراكي ، في مؤتمره التأسيسي في عام ١٩٠١ الموافقة على اي قرار يتعلـــق بالعنصرية او السحل . ولم يقر المؤتمر قرارا يتعلق بحقوق السود الا بعد طول مقاومة ، وكذلك طول الحاح من جانب وليم كوستلي ، وهو مندوب اسود . وما كان منظمو الحزب الاشتراكـــي يرون أن نضال السود يجب ان ينظر اليه كنضال مـــواز لنضال العمال البيض . فقد كانوا يقدرون ان مشكلات السود ستجد حلها يوم تمسك الطبقة العاملة البيضاء بمقاليـــد الدولة وتؤسس الاشتراكية . وكان الاشتراكيون ينظرون بعين العداء الى كل محاولة من جانب السود للتعبير عـــن حاجاتهم الخاصة . هكذا كان و. ز. فورستر اول من لاحظ:

«على هذا النحو اعلن الحزب الاشتراكي انه ليس في الوضع الخاص للسود ما يختلف كافي الاختلاف عن المشكلات العامة للعمال البيض حتى يتوجب رفع مطالب خاصة بهم. وقد أقر الحزب بالحاجة المباشرة الى المطالبات فيما يتعلق بالعمال والمزارعين والنساء والاولاد ، وكذلك فيما يتعلق ببعض المشكلات الاخرى ـ لكنه ارتأى ان مصير السود الذي

يبعث على المرارة لا يستدعي اي عمل مباشر» (١) .

ان كل من انتمى من السود الى الحزب الاشتراكي قد انتقد في يوم من الايام عنصريته . وقد كانت هذه العنصرية واحدا من الاسباب التي حملت و. إ.ب ديبوا ، الذي انتمي الى الحزب الاشتراكي في عام ١٩١٠ في نيويورك ، علـى تقديم استقالته منه في عام ١٩١٢ . وقد كتب ديبوا في عام ١٩١٣ في «نيو ريفيو» ان «اشتراكية القرن العشريـن النظرية تجد نفسها امام إحراج دقيق فيما يتعلق بمشكلاتها العنصرية » .

والشيء الوحيد الذي انتجه الحزب الاشتراكي خلال العقدين الاولين من وجوده في موضــــوع الادب الخاص بالسود كان اهجية موجـــزة لتشارلز فايل عنوانهـــا «الاشتراكية والمشكلة السوداء» . وكما هو متوقع اكد فايل في هذه الاهجية ان الاشتراكية بذاتها ووحدها هي التـي تتجاوب وحاجات السود . وقد ساهم عجز الاشتراكيين الاميركيين الاوائل عن فهم تعقيدات التجربة السوداء فـي اضمحلالهم كقوة فعالة في المجتمع الاميركي . وحتى في عام ١٩٣٢ كان الحزب الاشتراكي لا يزال يرفض تحمـــل اقتراحات السود المطالبة بالمساواة. بيد انه تحمل مسؤولية اصدار مجلة «ميسنجر» في هارلم باشراف تشارلز اوينز

---

١ ــ وليم ز. فورستر : «الشعب الزنجي في التاريخ الاميركي» . نيويورك ١٩٥٤ ، ص ٤٠١ .

و أ. فيليب راندولف . فقد كان اوينز وراندولف عضوين فعالين في الحزب الاشتراكي .

وكانت مجلة «ميسنجر» ، التي تأسست في عام ١٩١٧ ، تدافع عن الفكرة القائلة ان الرأسمالية هي العلة الاساسية للعنصرية ، وللجور والظلم في العمل ، ولاستغلال العمال . وكانت «ميسنجر» تطالب بتشريك الصناعة ، وبتأميم الاراضي ، وبإزاحة النزعة الفردية الاقتصادية عن طريق ثورة اجتماعية . وكانت تعاضد محاولات السود لتنظيم انفسهم في نقابات مستقلة . وفي عام ١٩١٧ أسس اوينز وراندولف «أخوية عمال المصاعد والهاتف» للحصول على شروط عمل أفضل للسود في نيويورك . وفي عام ١٩٢٠ ألف اوينز وراندولف جماعة عرفت باسم «اصدقاء حرية السود» . وكانا يقدران ان هذه الجمعية ستكون بمثابة منظمة قومية تعمل في خدمة النقابات السوداء . كما أنشآ مجلساً سياسيا مستقلا بغرض تنظيم حملات بين سكان هارلم السود لانتخاب مرشحين أشتراكيين سود (١) .

ولم تتبد المشكلة السوداء لأوينز وراندولف على حقيقتها وبكل واقعيتها الا في ألعشرينات حين انتزعت منهما حركة غارفي قيادة الحزب . فقد عرف غارفي كيف يوجه انبثاق الوعي القومي للجماهير السوداء في اقنية ومجارٍ محددة كي

---

١ ـ سترلينغ د. سبيرو وابرام ل. هاريس : «العمال السود» ، نيويورك ١٩٦٨ .

يجتذب اليه الانصار ، بينما لم يعرف اوينز وراندولف أن يفعلا ذلك .

وبعد انفصالهما في أعقاب ذلك ، انضم راندولف في عام ١٩٢٥ الى صف النضال في سبيل تنظيم حمالي شركة بولمان للسكك الحديدية . ولكنه بعيد ذلك بقليل عاد يقترف نفس أخطائه السابقة ، اذ تراجع عن جميع المواقف تقريبا التي كان قد وقفها سابقا . فبدلا من ان يسير في طريق مستقل مع نقابته ، نقابة الحمالين ، سعى بحمية الى دمجها بالاتحاد الاميركي للعمل .

اما الحزب الشيوعي ، الذي تأسس في عام ١٩١٩ على اثر انشقاق في صفوف الاشتراكيين ، فقد بدا وكأنه عاقد العزم على ألا يقع في نفس الاخطاء التي وقع فيها الحزب الاشتراكي بخصوص السود . وبعد مناقشات مديدة ، بدأ يقبل بتأويلات لينين الجديدة للاستقلال والاستعمار وحركات العالم الثالث .

كان لينين قد عدل بالطبع تعديلا له دلالته الطريقة التي عالج بها ماركس وانجلز مسألة القوميات . فبعد دراسة معمقة للمشكلة خلص لينين الى الاستنتاج انه «لا بد بالضرورة من اجراء تمييز بين قومية أمة تضطهد امة اخرى وقومية امة ترزح تحت الاضطهاد ، وكذلك بين امة كبيرة واخرى صغيرة» (١) . وفي تقدير لينين انه من الضروري،

---

١ ــ لينين : «مقالات مختارة» ، نيويورك ١٩٦٨ ، ص ٦٤ .

لضمان الحرية القومية للشعوب الرازحة تحت الاضطهاد ، ان تقدم لها البروليتاريا العالمية كل ما في مستطاعها من مساعدة ومساندة . ويتوجب على الماركسي الجدير باسمه، في نظر لينين ، ان يمد يد المساعدة بجميع الوسائل التي في متناوله للنضالات القومية في سبيل تقرير المصير .

ولم يكن لينين يعد مثل هذا المطلب محض تمرين من تمارين البلاغة . فقد حاول بكل نشاط ان يطبق نظرية تقرير المصير في روسيا بعد ثورة أوكتوبر . وقد تم الاعتراف بالاستقلال الذاتي لفنلندا(١)، وجرى التفاوض على معاهدات صلح منفردة مع دول البلطيق . كذلك اقترحت الحكومة السوفياتية اقامة «اتحاد للجمهوريات القومية السوفياتية»(٢). وقد نجم عن ذلك أقامة عدد معين من الجمهوريات والمناطق المستقلة ذاتيا . واتخذت تدابير لضمان الاحترام للغة هذه الاقليات القومية وثقافتها وديانتها وأعرافها (٣) . وقد كافح

---

١ ـ الحق انه تم الاعتراف باستقلال فنلندا لا باستقلالها الذاتي فحسب . ـم ـ

٢ ـ لينين : «مؤلفات مختارة» في عشرين مجلدا ، المجلد ٦ ، ١ ص ٤٥٢ .

٣ ـ وكذلك الحال في الصين حيث ينتمي اكثر من ٤٠ مليون نسمة، اي ٦ بالمئة من اجمالي السكان ، الى الاقليات . وقد انتهج ماو سياسة مماثلة تجاه الاقليات القومية . فقبل الثورة كانت الطبقات الحاكمة في الصين تتألف من الغالبية ، الهان. وكانت مشبعة بـ«الشوفينية الهانية» =

لينين بحمية ما كان يسميه بـ «الشوفينيسمـة الروسية» .
وفيما بعد جرى تنظيم مجلس سوفييت للقوميات يتألف من القوميات مجتمعة ، ويعتبر ندا لمجلس السوفييت الاعلى(١).
لقد لاحظ لينين في واحدة من دراساته الاولى عـــن القوميات في العالم، وهي دراسة لم يكتب لها أن تكتمل(٢)،

= تجاه الاقليات القومية. وبعد الاستيلاء النهائي على السلطة في عام ١٩٤٩ اخذ الحزب الشوعي الصيني على عاتقه تغيير الاوضاع القانونية للاقليات القومية في البلاد . وقد كتب جوزف كولماس ، في دراسته للاقليـــات القومية في الصين ، يقول : «لقد تبدل الموقف غب تأسيس الجمهورية الصينية في عام ١٩٤٩ . فقد حصلت الاقليات رسميـــا على المساواة القانونية ، على الحق في تقرير المصير الذاتي على المستوى المحلي ، وعلى حرية الاحتفاظ بلغتها وعاداتها القومية ... والاستقلال الذاتي للمناطق هي السياسة الاساسية التي تبنتها الحكومة حيال مشكلة القوميات . فالدستور الصيني ينص على وجوب ممارسة الاستقلال الذاتي في المناطق التي تعيش فيها اقليات قومية كتيمة . اما في سائر الحالات الاخرى فان النظام الانتخابي منظم على نحو يتاح معه لجميع الاقليات ان تكون ممثلة في حدود معقولة في كل حكومة محلية . وتوجد اليوم في الصين خمس مناطق مستقلة ذاتيا وخمس وستون مقاطعة مستقلة ذاتيا أصغر حجما» (جوزف كولماس : «الاقليات القومية» في مؤلّف آدامز: «الصين المعاصرة» ، نيويورك ١٩٦٨) .

١ ــ ن.ن. أغروال : «سياسة القوميات السوفياتية» ، اغره ١٩٦٩ .

٢ــ الاشارة هنا الى دراسة لينين الناقصة: «احصاء وسوسيولوجيا». =

أن «١١ر١ بالمئة فقط من السكان في الولايات المتحدة يتألفون من سود (وكذلك من خلاسيين وهنود) ينبغي ان يعدوا أمة مضطهدة ...» (١) . وقد أعد الحزب الشيوعي في عام ١٩٢٨ ، مستلهما نظريات لينين وممارساته ، وبمقتضى التعريف الستاليني للأمة (لغة وأرض مشتركتان ، حياة اقتصادية وثقافة مشتركتان) قرارا عنوانه «حول مسألة السود في الولايات المتحدة» . وفي هذا القرار ، اعلن الحزب الشيوعي ان المنطقة التي جرت العادة على تسميتها بـ «حزام الجنوب الاسود» هي أمة مضطهدة ينبغي تحريرها . وبالرغم من ان هذه الفكرة لم تلق سوى نجاح قصير العمر ، فانها كانت علامة تبدل في الطريقة التي ينظر بها الماركسيون الى نضال السود . فلاول مرة يصدر اعتراف بأن السود يشكلون أقلية قومية ، ولو لفظيا على الاقل .

ان لدى السود ، وهذا ما يبدو ان غارفي قد فهمه ، تطلعا عميقا الى وجود قومي . وينبع هذا الشعور مباشرة من الطبيعة المرهقة ، المضنكة ، لحياة السود ووجودهم . وعليه ، فان المفهوم اللينيني عن الاستقلال الذاتي ، كما

= وقد نشرت بالعربية في مجموعة «نصوص حول المسألة القومية» (لينين) ، دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٢ .

١ ـ نقلا عن تيودور درابر «الشيوعية الاميركية وروسيا السوفياتية» ، نيويورك ١٩٦٠ ، ص ٣٣٦ .

أوّله الحزب الشيوعي في أواخر العشرينات ، قد مثّل خطوة هامة متقدمة الى الامام . بيد انه لا يعدو ان يكون ، اذا وضعناه في سياق الوضع الافرو ـ اميركي ، برنامجا فرضه البيض فرضا ولم يشارك في رسمه لا العمال السود بوجه عام ولا المزارعون السود الجنوبيون . فحتى يتجاوب مفهوم الاستقلال الذاتي تمام التجاوب مع المثل الاعلى اللينيني ، كان من الضروري ان يؤخذ رأي السود بطريقة تسمح بمعرفة وجهات نظرهم في المسألة على نحو دقيق .

ثم ان اميركا الافريقية ، ايا تكن الزاوية التي قد ننظر اليها منها ، هي ملحق تابع لاميركا البيضاء . فالسود لا يتميزون ويختلفون عن البيض فحسب ، بل يعانون ايضا من اضطهاد الامة بأسرها . ولا يتمثل المضطهِد في الطبقة البيضاء الحاكمة فحسب ، وانما ايضا في اميركا البيضاء بما تضمه من عدد كبير من الشغيلة الذين استفادوا اوسع الاستفادة من هذا الاضطهاد على المستوى القومي . وقد أبان ذلك بمنتهى الوضوح كل من جيمس بوغز في «العنصرية والصراع الطبقي» ، وهارولد كروز في «تمرد او ثورة ؟» ، وروبرت ل. آلن في «اليقظة السوداء في اميركا الشمالية» . وقد أتاح فرط إستغلال العالم الثالث من قبل الامبريالية الغربية رفاها ماديا لبعض الشرائح المصطفاة من الطبقة العاملة البيضاء في اميركا . وقد مكنها ، تسانده في ذلك الحاجة المعممة الى الاستهلاك والتكنولوجيا ، من دمج تلك الرفاهية بالبنية المهنية الواسعة . وقد تعززت هذه العلاقة بفضل الدور العظيم لوسائل الاعلام في مضمار الدعاية

(ولاسيما التلفزيون) . وتبين لنا النظريات الاساسية عن «ارستقراطية العمل» ، والنقابية المنحطة والمرشوة ، والسيطرة البيروقراطية ، والخوف من مزاحمة السود في العمل ، يبين لنا هذا كله بوضوح لماذا يصطدم السود بكراهية الشغيلة البيض في الوظائف الاختصاصية ونصف الاختصاصية. لكنهلا يبينلنا لماذا يدلل العمالالاختصاصيون المتسبون الى النقابات والمتمتعون بامتيازات نسبية ، على اشد الاحتداد والعنف في العداء للسود . فحلبتهم المهنية هي الحلبة التي يملك السود أضأل الفرص في الدخول اليها ذات يوم . وهكذا ساهمت جميع العوامل المذكورة أعلاه في تكوين نوع من طائفة مهنية ذات امتيازات للشغيلة البيض، طائفة ما كان في وسع ماركس في القرن التاسع عشر في انكلترا ان يتنبأ بها ، ولم يتوقعها لينين في روسيا في مستهل القرن العشرين الا بصورة جزئية .

ثم ان عجز الحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي عن تحليل الانقسامات الطبقية في بنية اميركا السوداء تحليلا صحيحا تسبب في العديد من الاخطاء . فقد كان قادة الحزب الاشتراكي وقادة الحزب الشيوعي على حد سواء يتكهنون بأن السود أقلية متماسكة كالصخر فيما يتعلق بصبواتهم وأهدافهم . وكان الكثيرون من الماركسيين يعتقدون ، وبعضهم لا يزال ، أن جميع السود عمال او لهم على الاقل «عقلية عمالية» . بيد ان السود ، بالرغم مما يكابدونه من اضطهاد طبقي بفعل عنصرية البيض ، لم يعرفوا قط روحا بروليتارية معممة . وقد وجدت على الدوام بين

السود فروق طبقية . وبفعل التأليل والمكننة والتغيرات في جميع ميادين المجتمع الاميركي ، يشكل «اخوان الشارع» الان طبقة هامشية سوداء . ونظرا الى ان هذه الجماعة عاطلة عن العمل على الدوام ، فقد استبعدت نهائيا من سوق الاستخدام . ومن ثم فانها لا تدخل في اي صياغة ماركسية ترمي الى تغيير اجتماعي .

وبموازاة ذلك انضمت النواة المهنية السوداء من الاطباء والمحامين والمدرسين ، الخ ، الى القطاع الاسود من عالم رجال الاعمال ، القطاع المؤلف من ملاكين صغار ومن اصحاب دكاكين ؛ لتشكل على مر السنين نخبة قد تكون محدودة لكنها قادرة ايضا على ان تفرض كلمتها . وقد مارست هذه النخبة تأثيرا هائلا ورقابة واسعة على شؤون الطائفة السوداء (١) . وقد لاقى الماركسيون على الدوام عداء مكشوفا من قبل هذه النخبة حين حاولوا تنظيم السود في تجمعات .

هذه المعارضة من جانب النخبة السوداء كانت اشد بروزا ايضا في مطلع القرن العشرين ؛ وكانت تتمثل في

---

١ ــ ١. فرانكلن فريزر : «الطبقة الوسطى السوداء والانحلال» ، في «مشكلات اجتماعية» ، ٤ نيسان ١٩٥٧ . ويلاحظ فريزر ان «سود الطبقة الوسطى قد وقفوا على الدوام في طليعة نضال السود في سبيل حقهم في المساواة في المجتمع الاميركي ؛ وقد احترموا وصانوا على الدوام ايضا القيم الاميركية الاساسية» .

معارضة تجمع السود في نقابات . ولم تكن النخبة السوداء مناهضة للنقابات العمالية البيضاء فحسب (وهذا امر كان يمكن أن نفهمه اذا اخذنا بعين الاعتبـــار عنصرية هـــذه النقابات) ، لكنها كانت تناهض ايضا النقابات السوداء . وقد كتب سبيرو وهاريس في «العمال السود» يقولان :

«ان محاولة تنظيم عتالي شركة بولمان قد حوربت من قبل رجال الصحافة والدين والسياسة السود بنفس الحمية التي أبدوها في محاربة محاولة تنظيم ألعمال الملونين فـــي المناجم . ولا يمكننا هنا ان نتهم الشغيلة البيض بالتواطؤ . فعتالو بولمان كانوا نقابة سوداء ينظمها ويقودها سود . ومع ذلك طلب الزعماء السود من العمال الا ينشطوا ضـــــد اصدقائهم في شركة بولمان» .

ان تحليلا رصينا للمشكلة يظهر للعيان أنه بالرغم من وجود هرم اجتماعي قابل للتمييز لدى السود ، فان هذا الهرم أقل اهمية مما هو عليه في اميركا البيضاء . وهذا يرجع اساسا الى ان تجربة السود في مضمار التطـــور الصناعي الخاص محدودة للغاية ، والى ان هذا التطور هو الذي اتاح لدى البيض امكانية فرض بنى طبقية صلبة . وترتيبا على ذلك ، ونظرا الى ان الغالبية الكبرى من السود تتحدر من الطبقة العاملة ، فان المجال يتسع عادة في صفوف تجمعاتهم للتحالفات الايجابية وألبناءة اكثر مما يتسع لها في صفوف البيض ـ بسبب الوحدة الطبقية والوحـــدة العرقية في آن معا . وقد لاحظ كلود ماكاي ، وهو مؤلـف اسود ذائع الصيت ساهم في الحركة الاشتراكية فـــي

بداياتها، لاحظ ما يلي :

«يخيل الي أنه لو نظم السود بوصفهم جماعة وبوصفهم عمالا ، ايا يكن عملهم (مع البيض او بدونهم) ، ولو تلقوا بالتالي تربية عملية تتعلق بطبيعة الحركة العمالية ودلالتها ، لكان ذلك اجدى لهم واهم من ان يصبحوا اعضاء في الاحزاب السياسية اليسارية » (١) .

لقد كانت المنظمات العمالية على مر تاريخها (وربما باستثناء «مؤتمر منظمات الصناعة» في باديء الامر) معادية من طرف خفي على الاقل للسود . وقد وجد السود ، بالنظر الى استبعادهم استبعادا شبه تام من النقابات العمالية ، انه من الاجدى لهم ، كما لاحظنا آنفا ، ان يؤسسوا نقابات خاصة بهم ، مثل «نقابة عمال الكهرباء» الملونين و«الجمعية الدولية لرجال المطافيء» الملونين و«نقابة المهن الاميركية» و«جمعية حماية عتالي الموانيء» و«الرابطة الوطنية للعمال الافرو - اميركيين في صناعات الغاز والتدفئة» .

ولقد كانت واحدة من اهم النقابات اطلاقا «الاخوية الوطنية لعمال اميركا» التي أسسها ر.ت. سيمس في عام ١٩١٩ . وكان سيمس يرى في «الاخوية» منظمة تأخذ بناصر «المبادىء النقابية الوطيدة» وتطبق «المناهج الثورية النضالية» (٢) . وكان غالبية المنتسبين اليها من عتالي

---

١ - كلود ماكاي : «من مسافة بعيدة عن الديار» ، نيويورك ١٩٦٨ .

٢ - سبيرو وهاريس : «العمال السود» ، ص ١١٧ .

الموانىء في فرجينيا الشرقية . وقد دفع سيمس بمنظمته لمدة من الزمن الى الالتزام بالخط اليساري الذي كانت تمثله «ميسنجر» ، وقد صار اوينز وراندولف معا عضوين في اللجنة القيادية لنقابته . وقد أثبتت «الاخوية» ، بالرغم من قصر عمرها ، أنه من الممكن تجميع السود في الصناعة لرفع مطالب من طبيعة اجتماعية وقومية . وقد اصبح سيمس، وهو بنفسه اسود وواحد من أوائل المنتسبين الى الحزب الاشتراكي ، اصبح فيما بعد واحدا من أنشط منظمي «التجمع العالمي لعمال الصناعة» .

ان الوحدة بين العمال البيض والعمال السود ما أمكن لها ، طوال حقبة مديدة من الزمن ، ان تأخذ طريقها الى التطبيق في اميركا بسبب العنصرية المعممة في مجمل النقابات . ومن الامثلة على هذه الحالة القائمة المقاومة الشديدة التي أبداها عمال البناء البيض في بتسبورغ وشيكاغو وسيتل حيال مطالب السود للحصول على شروط عمل أفضل . وكما لاحظ ديبوا منذ نحو نصف قرن من الزمن:

«نحن نظريا جزء من البروليتاريا العالمية ، بمعنى اننا بصورة رئيسية طبقة مستغَلة من يد عاملة رخيصة ؛ لكننا عمليا لا نؤلف جزءا من تلك البروليتاريا البيضاء التي لا تعترف بنا الا ضمن حدود ضيقة للغاية . اننا ضحايا اضطهادهم المادي ونبذهم الاجتماعي ونفيهم الاقتصادي وحقدهم الشخصي . وحين نفتش ، دفاعا عن انفسنا ، عما نسد به رمقنا حتى لا نهلك جوعا ، يوجهون الينا الشتائم

كأننا خونة» (١) .

ان التجمع المستقل للعمال السود يظل ، في ايامنا هذه ، نقطة حساسة في حركة تحرر السود . فالعمال السود هم ، في اميركا المعاصرة ، مفتاح كل نظام الانتاج . وقد صرح كين كوكريل ، من «رابطة عمال ديترويت الثوريين السود» ، في مقابلة أجريت معه مؤخرا :

«هل تعلمون ان **تانك ارسنال** التي تصنع غالبية الدبابات للجيش الاميركي موجودة في **ناين مايل وماوند،** وان ٩٠**بالمئة** من عمال هذه الشركة هم من السود ؟ فمن كان في **رأيكم** يجوب الشوارع في ٢٣ تموز ١٩٦٧ (تاريخ **تمرد السود في ديترويت**) ومن يجوب اليوم في الارض الفيتنامية ؟» (٢) .

وبالفعل ، وفيما عدا بعض الاستثناءات ، لا يبدو على الكثيرين من «الناطقين بلسان» السود انهم يعون اهمية توحيد السود في موضع الانتاج بالذات . فمنذ نهاية **العشرينات والاربعينات** لم يحاول اليسار الاسود تشكيل اي تجمعات عمالية بين السود برسم المطالب العمالية . وكما

---

١ — «الازمة» ، عدد آب ١٩٣١ ، ص ١٥١ .

٢ — كين كوكريل : مقابلة في «ليبيريشن نيوز سرفيس» ، ٨ آب ١٩٧٠ . و«الرابطة» هي نفسها حزب ماركسي — لينيني اسود . **وينص** برنامجها على ضرورة تجميع العمال السود على نطاق واسع ، وتنوير السود بطبيعة العنصرية والتحالف المبدئي مع المضطهَدين (بمن فيهم البيض) الذين يناضلون ضد نظام الاضطهاد الاميركي .

كتب هاري هايوود ، المنظم الاسود للحزب الشيوعي :

«ان الطبقة العاملة السوداء طبقة لها تعبير وأهداف سياسية مستقلة موجهة نحو نضال نشيط وصلب ضد الامبريالية . وبروز هذه الطبقة كعامل سياسي مستقل يعني ظهور اتجاهين داخل حركة تحرر السود : اتجاه يرغب في الوصول الى تسوية مع المضطهِد ، واتجاه ثان يكافح الامبريالية تحت قيادة **الطبقة العاملة السوداء» (١) .**

ان وحدة السود **في غير هذه المجالات أيضا ليست مرغوبة** فحسب ، بل ضرورية وأساسية ، كما كان **أخونا مالكولم** إكس يلفت انتباهنا الى ذلك باستمرار **يوم كان على قيد الحياة** . والفارق الجوهري هو ان **قاعدة هذه الوحدة** يجب ان تكون حاجات جماهير السود قبل اي **شيء آخر.** وللوصول ألى هذه النقطة ، لا بد بالبداهة من ان تتولى الجماهير السوداء القيادة في جميع مراحل الحركة السوداء(٢). ومن المؤشرات الايجابية على توطد هذه الحركة وتعززها نمو المنظمات العاملة في البلاد على حماية الحقوق في المساعفة الاجتماعية وتكاثر تكتلات الطوائف السوداء ، **وتزايد عدد**

---

١ ــ هاري هايوود : «تحرر الزنوج» ، نيويورك ١٩٤٨ ، ص ٢٠٤ .

٢ ــ و. ا. ب ديبوا : «الزنوج وأزمة الرأسمالية في الولايات المتحدة» ، مانتلي ريفيو ، نيسان ١٩٥٣ . ويعكس هذا المقال تبدل تصورات ديبوا بخصوص نضال السود . ففيه يعرب عن تأييده لقيادة سوداء (عمالية) توجه النضال المفضي الى الاشتراكية .

الرابطات السود لمقاطعة بعض المنتجات ، الخ .

ووحدة السود أعظم اهمية وأكثر حيوية ايضا اذا اخذنا بعين الاعتبار ان الطائفة السوداء تواجه في هذه المرحلة هجمات متكررة . فأعمال التمرد في احياء الزنوج ، وتبادل اطلاق الرصاص في جاكسون ستيت وأوغستا ، والهجمات على الفهود السود ، هذا اذا لم نتكلم عن الازعاج والملاحقة اليوميين للسود وعن الفظاظة التي يعاملون بها ، هذا كله يظهر للعيان بمنتهى الوضوح انه يتوجب على الطائفة السوداء ان تسعى الى الدفاع عن نفسها بالسلاح **بصفتها طائفة** .

لقد ثلمت العنصرية ، اكثر من أي شيء آخر ، تثليما شديدا من حدة صراع الطبقات في اميركا . والعنصريـــة راسخة الجذور في التجربة الثقافية الاميركية الى حد لا يصيب معه التحليل الماركسي الذي يعزوها الى الرأسمالية والى بنية الطبقة البورجوازية سوى جزء من الحقيقة او جانب من جوانبها اليوم . صحيح انه لا يسعنا ان نشك في ان عنصرية البيض تعود في أصلها الى مادية الاوروبيين من تجار الرقيق والى المزاحمة الاقتصادية بين العمال السود والعمال البيض التي تؤجج أوارها الطبقة الحاكمة الاميركية. بيد ان العنصرية طورت على مر السنين طابعا خاصا وأخذت أبعادا جديدة . وتأثيرها اليوم في النفس الاميركية شديد الى درجةلا يعيها غالبيةالبيض،وبخاصة «الليبراليين»و«اليسار» .

ان العنصرية وطيدة الجذور في اللحمة الثقافية لاميركا. وهي اليوم، وبعد اختلاطها بالبنيةالفوقية للمجتمع الاميركي، مسألة مواقف بقدر ما هي مسألة مؤسسات . وحتى في

يومنا هذا يميل الكثيرون من الماركسيين الى الوقوف عند التظاهرات الموضوعية للعنصرية وحدها والى تجاهل طابعها الذاتي الذي يتبدى من خلال طريقة حياة الاميركيين البيض. وهذه المشكلة على درجةمن التعقيد لا يتنبهمعها حتى غالبية السود لعمقها . وان واحدة من نقاط الضعف التي يمكن ان نلاحظها في كتابات بوغز وآلن، على ثمين قيمتها، هي انهما لا يتطرقان بالبحث الى العناصر النفسية-الاجتماعية للعنصرية.

عندئذ ينطرح السؤال كما يلي : «هل الاشتراكية في ذاتها دواء كاف لوضع حد للعنصرية الاجتماعية ؟» . انعدم توفر درجة كافية من البداهة حول هذه النقطة يدلنا على ان الجواب سلبي . ففي كوبا ، حيث قامت ثورة اشتراكية وحيث لا تغرس العنصرية جذورها بمثل العمق الـــــذي تغرسها به في الولايات المتحدة الاميركيـــــة ، لا تزال الآراء المسبقة المعادية للافرو - كوبيين قائمة . وقد ندد منذ بضع سنين كارلوس مور ، وهو كاتب افرو - كوبي ، في مجلة «الحضور الافريقي» باستمرار وجود العنصرية في الحياة الكوبية القومية . بيد انه لا بد من الاشارة الى ان كوبا ، بالرغم من دوام وجود العنصرية ذاك ، قد حققت تقدما هائلا بفضل ازالة الثورة للآثار السلبية لثلاثة قرون من العبودية والراسمالية والعنصرية .

ومهما يكن من امر ، تدلل بعض الجماعات الماركسية على رياء ونفاق كثير في مسألة العنصرية . فهم يعترفون ، من جهة اولى ، بواقع ان السود يمثلون القطـــــاع الاكثر اضطهادا والاكثر استغلالا من قطاعات المجتمع الاميركي ،

وبأنهم بالتالي رواد الثورة الاميركية . ومن جهة اخرى ، لا تضم هذه الجماعات ، فيما عدا بعض الاستثناءات ، سودا بين قادتها . وهذا امر يدعو الى الاسف ، لان واحدة من أنجع الطرق في مكافحة العنصرية لدى البيض تتمثل في حملهم على القبول بان يقودهم ويوجههم سود . وهذا امر لو تحقق لكان خطوة عظيمة الى الامام . فالبيض بوجه عام لم يتعودوا قط القبول بأوامر صادرة عن السود او بقرارات متخذة من قبلهم . ولقد كان العكس هو القاعدة على الدوام. ومن الضروري مطلق الضرورة ، لمكافحة العنصرية الذاتية ، ان تعكس الادوار تماما لحقبة من الزمن . وليس البديل المناسب عن ذلك لجنة تحرير او لجنة انتخابية مؤلفة من السود داخل منظمة يسارية تهتم بمصالح السود .

ان الهوة الحقيقية بين الماركسية والقوميـــة السوداء موجودة ، على ما يبدو ، على مستوى الثقافة السوداء . فالقسم الاعظم من القوميين السود ينزع الى نبذ الماركسية ولفظها ، وذلك بالنظر الى عدم القيام بدراسات تفصيلية لجميع الجوانب العملية في الماركسية ، والامتناع بالتالي عن استخلاص النتائج من كل جانب من هذه الجوانب على حدة. وتضارع حججهم حجج الكثيرين من المنظّرين البورجوازيين الافارقة . فعلى سبيل المثـــال ، مرّرت جماعة مـــن «الماركسيين» الافارقة ، وكان على رأسهم ايميه سيزير ، في اجتماع للكتاب والفنانين السود انعقد في روما في عام ١٩٥٩ ، مرّرت قرارا يتضمن جزئيا ما يلي :

١ ــ ان الاسانيد الثقافية في فكر ماركس هي بالاجمال

انعكاس للتجربة الغربية .

٢ ـ ان الوضع الاقتصادي للبروليتاريا الغربية لا يمكن المماثلة بدقة بينه وبين الوضع الاقتصادي للبلدان المتخلفة.

٣ ـ ان اي مذهب يكون اكثر شمولية اذا شمل ، من جهة ، جميع التجارب التاريخية ، والاقتصادية ، الخ ، للشعوب وللفوارق في عبقريتها الثقافية ، واذا كانت تطبيقاته ، من الجهة الثانية ، خاضعة لاشراف سلطة تمثيلية حقا ... (١)

ان الماركسية ، كما يشير البيان بسداد ، هي في الاساس ثمرة التجربة الغربية . لكن هذا لا يعني انها قوة غريبة واجنبية بكاملها بالنسبة الى التقاليد الاجتماعية ـ الثقافية لافريقيا الاميركية وانما من خلال النضال المقبل ستتضح للسود الجوانب التي ينبغي استخدامها من الماركسية والجوانب التي ينبغي ان تهجر . وانما من خلال نضال السود ايضا يمكن ، كما لاحظ فرانز فانون ، ان ترى النور ثقافة سوداء حقيقية .

ان النزعة القومية التقدمية السوداء مثقلة اذن بالوعود كايديولوجيا قادرة على لم شمل السود ابتغاء حل مشكلاتهم المباشرة والفورية . والنزعة الاممية الماركسية تتحقق اولا في سياق قومي (الصين ، كوبا ، روسيا ، الخ) . والامة هي الوحدة الاساسية في كل نضال للشعوب الرازحة تحت نير

---

١ ـ النص الكامل للقرار موجود في كولن ليكوام : «الوحدوية الافريقية» ، نيويورك ١٩٦٥ .

الاضطهاد في سبيل اعادة البناء . والدليل على ذلك تقدمه لنا حركات التحرير القومي ، ابتداء من حركة التحرير القومي في فيتنام الى حركة التحرير في غينيا . وبوجه الاجمال ، ليس التناقض في الغرب بين الطبقة الحاكمة والطبقةالعاملةبقدر ما هو بينالغرب‌نفسه(بما فيه‌عماله‌البيض) وبينالعالم الثالث الذييؤلف عمال اميركا السود جزءا منه.

ان تقرير المصير الذاتي والسيادة ، وهما جانبان حيويان في تطور كل جماعة كائنة ما كانت ، هما ايضا الشغل الشاغل الفوري للجماهير السوداء . وهذا معناه ، من وجهة النظر العينية ، ان نضال السود هو سلفا نضال عرقي واجتماعي معا . ومن هذا المنظور ، فان حجة الاندماج بالتعارض مع الانفصال هي اليوم ، كما كانت بالامس ، حقيقة واقعة . والنقطة الوحيدة التي لا تزال تستدعي نقاشا هي النقطة المتعلقة بالطرائق التي ينبغي استخدامها لاقامة مؤسسات خاصة بالسود كجماعة قائمة في ذاتها ، مؤسسات قابلة للحياة وراسخة الدعائم ومتجاوبة مع حاجات السود الاساسية . وحتى هذا لا يجوز النظر اليه الا على انه وسيلة . اما الهدف فيجب ان يكون التحويل الكامل للمجتمع الرأسمالي الاميركي .

لقد اكد لينين وماو كلاهما على ان الصراع القومي يؤلف جزءا لا يتجزأ من صراع الطبقات ، وهذا امر لا يجوز لنا ان ننساه . وعليه ، وفيما يتعلق بمسألة الوطن ، فانه لا يكفي ان يحصل السود على ارض . بل ينبغي ايضا ان تتوفر لديهم الوسائل لتطويرها . فان يكون المرء مجرد

مالك ، فهذا لا يعني كبير شيء . ان السود يجب ان يشرفوا اشرافا كاملا على وسائل الانتاج . واذا لم يتحقق ذلك ، فان الارض تصبح عديمة النفع وغير منتجة ، او تقع فريسة الاستغلال ألاستعماري الجديد . وهذا ما يحدث احيانا في افريقيا اليوم .

ان أعدادا متزايدة من السود تغدو واعية لخداع الرأسمالية السوداء والبرنامج القومي البورجوازي القائم على مبدأ «اشتروا اسود» . وقد شرع بعضهم يفكر جديا ببرامج للتطور الاقتصادي على اساس من مناهضة الرأسمالية . وليس لهذا ، بطبيعة الحال ، سوى قيمة محدودة ما دام ينظر اليه على انه هدف مؤقت . اذ ان وجود اي نمط لمشروع اسود مستقل امر متعذر ومستحيل في سياق التنظيم الاميركي الراهن .

وأخيرا ، وكما هي الحال في افريقيا حيث رأت النور نظريات جديدة للنضال على ايدي مفكرين من أمثال نكروما وسيكوتوري وكابرال وفانون ونيريري ، يتوجب على السود في اميركا ان يواصلوا البحث عن مفاهيم خلاقة جديدة لمواجهة الاضطهاد الذي يرزحون تحت نيره . ان تحرر السود سيولد من ثقافة افريقيا الاميركية ووعيها وتجاربها الثورية.

ان استخدام الماركسية ــ اللينينية أداة علمية للتحليل لا يبدو متناقضا حين يجري تطبيقها تطبيقا صحيحا على الشروط الخاصة بالسود .

مانثلي ريفيو
آذار ١٩٧١



ضد القومية ـ اي ضد الشطط في تفسير التاريخ بالصراعات القومية ـ وضد الطبقوية ـ اي ضد الشطط في تفسير التاريخ بالصراعات الطبقية ـ يؤكد هذا الكراس على ان العلاقـة بين الامة والطبقة هي علاقة جدلية ، وعلى ان المبدأ القومي لا يزال يساهم في صنع التاريخ الى جانب المبـدأ الطبقي ، وعلى انه اذا كان التفسير النهائي للتاريخ هو صراع الطبقات ، فهذا لا يعني ، ان الصراع القومي ليس له استقلاله الذاتي ، كما لا يعني انه قابل للاختزال والارجاع الى الصراع الطبقي المحض .

المكتبة التقدمية

الثمن : ٢٢٥ ق. ل.

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت